

« إن احتفاءنا بقيام دولتنا المستقلة هو، في جوهره، احتفاء بميلاد رابط جديد، يجمع سائر مكونات مجتمعنا، على اختلافها وتنوعها، ويجعل منها أمة وشعبا موحدًا؛ إنه رباط المواطنة: الرباط الذي عليه مدار الحقوق والواجبات، والذي، كلما قوي وترسخ، تعززت الوحدة الوطنية واللحمة الاجتماعية. »

■ فخامة رئيس الجمهورية السيد محمد ولد الشيخ الغزواني
28 نوفمبر 2025 نواكشوط

التراث والنص واللغة:

مقاربات في الثقافة المحظرة والدراسات الإنسانية





مقاربات في الثقافة المحظية والدراسات الإنسانية

4 الثقافة المحظية الموريتانية:

السّمات والإكراهات

د. ولد متالي لمرباط بن أحمد

7 السرديات ما بعد الكلاسيكية ونصية النص السردية:

سؤال السردية

أ.د. محمد الأمين مولاي إبراهيم

12 النقد الأدبي من الانطبعية إلى المعيارية:

قدامة بن جعفر نموذجاً

الأستاذة خديجة الشاه

17 من المعنى إلى القصد

(مقترح إبول غرايس (Pole Grice)

الإستدلالي في التواصل و تجاوز المدخل السيميوطيقي)

الباحث محمد بن قاري

31 الشيخ محمد اليدالي وآراؤه النقدية من خلال كتابه

«المري شرح صلاة ربي»

أ.د. محمد الحسن محمد المصطفى

35 المخطوطات الموريتانية بين تحديات الواقع وآفاق المستقبل

د. الشيخ إبراهيم آكيه

39 الهيام في الشعر الشنقيطي (دراسة سيميائية)

د. الشيخ أحمد شنان

44 «البعد التراثي في الكتابة الدرامية»

الدكتور عطاء الله الأزمي

52 خصائص الجنس اللغوي

بين اللغة العربية واللغات السامية

الباحث محمد محفوظ سالم فال

الافتتاحية

■ أ. محمد سيدي عبد الله
الأمين العام للجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم



يأتي العدد السادس والستون من مجلة الموكب الثقافي ليواصل رسالتنا العلمية في خدمة البحث الرصين، وترسيخ ثقافة المعرفة، وإتاحة منبر أكاديمي محكم للباحثين والدارسين، إيماناً بأن النهضة الثقافية لا تقوم إلا على أساس البحث العلمي الجاد، والحوار المعرفي المسؤول، والانفتاح على مختلف المقاربات النقدية واللسانية والتراثية.

ويحفل هذا العدد بدراسات مميزة تتقاطع عند محاور جامع هو استكشاف البنية الثقافية واللغوية والأدبية لموريتانيا والعالم العربي، واستحضار التراث بوصفه مصدراً للإبداع والتجديد. فقد أولى الباحثون اهتماماً خاصاً بالثقافة المحظرة الموريتانية، والمخطوطات الوطنية، والشعر الشنقيطي، والجهود النقدية لعلمائنا، في مقابل دراسات أخرى انفتحت على السرديات الحديثة، واللسانيات، والتداولية، والسميائيات، والنقد الأدبي، بما يعكس حيوية البحث العربي وقدرته على التفاعل مع المناهج المعاصرة دون التفريط في أصالته.

كما يكشف هذا العدد عن حضور لافت للدراسات اللغوية، سواء من خلال تناول نظامية اللغة في المدارس اللسانية، أو خصائص الجنس اللغوي في العربية واللغات السامية، أو خريطة اللغات في غرب إفريقيا وروافد التنوع اللغوي في موريتانيا، وهي موضوعات تؤكد أن اللغة في حقيقتها وعاء للهوية، وذاكرة للأمم، ومجال رحب للتفاعل الحضاري.

وفي المجال الأدبي، تتوزع البحوث بين دراسة السرديات ما بعد الكلاسيكية، والنقد العربي القديم مثلاً في قدامة بن جعفر، وتحليل الظواهر الشعرية في الأدب الشنقيطي، والبعد التراثي في الكتابة الدرامية، بما يعكس استمرار الحوار بين التراث والحداثة، وبين النصوص المؤسسة والقراءات النقدية الجديدة.

إن اللجنة الوطنية الموريتانية للتربية والثقافة والعلوم، وهي تضع هذا العدد بين أيدي القراء والباحثين، تجدد التزامها بدعم البحث العلمي، وتشجيع النشر الأكاديمي المحكم، وتعزيز حضور المعرفة الموريتانية في الفضاء العربي والدولي، انسجاماً مع رسالتها في خدمة التربية والثقافة والعلوم، وترسيخ مكانة موريتانيا باعتبارها منارة للعلم والمحظرة والمخطوط، وحاضنة لتنوع ثقافي ولغوي ثري.

ولا يسع هيئة التحرير في ختام هذه الافتتاحية إلا أن تتقدم بخالص الشكر والتقدير للسادة الباحثين الذين أثروا هذا العدد بدراساتهم القيمة، وللسادة المحكمين الذين أسهموا بخبراتهم العلمية في الارتقاء بجودة البحوث المنشورة، كما تتوجه بالشكر إلى كل من يدعم رسالة المجلة ويؤمن بأهمية البحث العلمي في بناء الإنسان وصناعة المستقبل.

ونتمنى أن يجد القارئ الكريم في هذا العدد ما يثري فكره، ويحفز البحث والحوار، ويعزز مسيرة المعرفة التي تظل الركيزة الأساسية لكل مشروع حضاري.



د. ولد متوالي لمرابط بن أحمد

الثقافة المحظرة الموريتانية:

السّمات والإكراهات

1. أفق

رصد الدّارسون والمهتمون بالتراث الثقافي الشنقيطي مجموعةً من الخصائص والمؤثرات التي ظلت توجه بنية الفعل الثقافي الشنقيطي، وأغلب تلك المؤثرات مستمد من طبيعة البيئة والأنساق الثقافية والمعرفية والاجتماعية التي عرفت بها البلاد عبر مراحل تشكلها التاريخي.

2. الترحال

ظلت ظاهرة الترحال حاضرة بقوة في الفضاء الشنقيطي بالرغم من حركة العمران والحضر والاستقرار النسبي التي عرفت بها البلاد في بعض مناطقها والتي بلغت ذروتها في عصور محددة. بيد أن بنية الترحال المنسجمة مع طبيعة البلاد المفتوحة للانتجاع والتحول ظلت حاضرة بقوة، وقد لازمت بعض أبرز من أنتجوا جانباً مهماً من المادة الثقافية الشنقيطية. فمما يروى أن المختار بن بونا (ت 1230هـ/1815م) كان «صاحب سفر وتنقل دائم رغم ضخامة مدرسته وكثرة طلابها»¹ وقد وصفه بعض طلابه مستحضراً كثرة تنقلاته المستمرة:

لك الله من شيخ إذا ما تبوأ
تلاميذه مأوى لنصب المدارس
تيمم ميمون الخصاصة فاتراً

على ظهر مفتول الذراعين عانس
يفزع نون البحر طوراً وتارة
يهدم جحر الضب في (رأس ماس)²
وهو ترحال يفصح عنه ابن بونا
بقوله:
قد اتخذنا ظهور العيس مدرسةً
بها نبين دين الله تبياناً
كما نجد الحديث عن ظاهرة الترحال لدى الشيخ محمد اليدالي في مقدمة كتابه (فرائد الفوائد)، مستحضراً تأثير تلك الظاهرة على طبيعة الإنتاج الثقافي والتفرغ له، حيث يقول: «فعذري أنني جمعت وأنا في تيرس أجول في أكنافها وأهيم مع أهلها يمنة ويسرة في جوفها وأطرافها:

يوماً بحزوى، ويوماً بالعقيق، ويوماً بالغذيب، ويوماً بالخليصاء
فتارة أنتحي نجداً، وأونة
شعب الحرون، وطوراً قصر تيماء
والطرف معتبر بكداها وأباطحها،
والقلب منتظر لعداها وطوائحها،
والقلم غير مساعف والهّم مبثوث،
ولا مداد إلا مداد صبيان المكتب
والترثوث، ولا جمع غالباً إلا بالليل
لاستغراق النهار بالترحال الحديث»³
وبالرغم من ذلك لم تثن هذه الظاهرة همّ العلماء الشناقطة وإن كانت بلا شك أثرت على طبيعة عطاءهم وحفظ مؤلفاتهم فظلوا يستحضرونها باستمرار في مقدمات تأليفهم، يقول محمد مولود بن أحمد فال (آد) في مقدمة كتابه الشهير: (مظهرة القلوب من قرة العيوب)⁴

هذا وقد رام لسان الحال
أوانّ الاشغال والارتحال
مني كتاباً في صلاح البال
إذا بفضل الله في إسبال
وقد ظلت ظاهرة الترحال مهيمنة بشكل كبير على طبيعة السكان في البلاد حتى سنوات الجفاف التي ضربت البلاد في سبعينيات القرن المنصرم، إذ تشير الإحصاءات الرسمية للدولة بعد خمس سنوات من الاستقلال (1965) إلى أن نسبة البدو الرحل 75.1 % من مجموع السكان، وأنها كانت أعلى من هذا الرقم قبل تلك الفترة. وهو واقع صعب للإنتاج الثقافي والتفرغ العلمي للتحصيل والبحث والكتابة. وتختلف ظاهرة الترحال التي تعتبر حادثاً عرضياً تفرضه إكراهات الواقع الذي يعيش فيه المثقف الشنقيطي القديم عن ظاهرة الرحلة (داخل البلاد أو خارجها) التي استحسنها الشناقطة القدماء؛ خصوصاً إذا كانت من أجل طلب العلم أو العبادة (الحج مثلاً)؛ لذا؛ فقد غادر كثير من العلماء والمثقفين الشناقطة أرض الوطن في رحلات متنوعة بعضها بقصد الحج، وبعضها الآخر بهدف الاطلاع وتحصيل العلوم والمعارف والتواصل مع العالم الإسلامي؛ وكان في مقدمة أولوياتهم الحصول على الكتب والمراجع العلمية بشكل عام، وبعضهم كان يبحث في تلك الرحلات عن كتب محددة بحاجة إلى الاطلاع عليها؛ مما يعني بلوغهم مستوى

1- المختار بن بونا الحكيم الشنقيطي: الاجمّار (مع نص ألفه ابن مالك وأنظم الطرة في الفوائد النوبة لعدد من العلماء الموريتانيين)، صححه وراجع مادته: إياه بن محمد عالي بن نعم العبد، جمعه وأعداه ونشره: محمد مخنوط بن أحمد، ط 1، 2003، ص 11.
2- أحمد ابن الأمين الشنقيطي: الوسيط في تراجم أدياء شنقيط، مطبعة محمد أمين الخانجي الكبي وشركاه، مصر، ط 1، 1911، ص 283، رأس ماس: موضع يتوس شال البلاد، والنون: السمك، والبحر: المحيط الأطلسي.
3- محمد اليدالي: شمع الزوايا، تقديم وتحقيق: محمد ولد باه، منشورات بيت الحكمة، تونس، 1990، ص 28.
4- محمد مولود بن أحمد فال الموسوي العيوني (آد): مظهرة القلوب من قرة العيوب، مراجعة وتحقيق: محمد عثمان بن محي الدين بن أبوه، الناشر: أحمد سالك بن محمد الأمين بن أبوه، ط 2، د. ت، ص 2.
5- محمد بياض بن محمد ناصر: البداية الموريتانية والثقافة المكتوبة، حليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مركز الدراسات والبحوث، جامعة نواكشوط، العدد 9، 2011، ص 2.

النضج المعرفي الذي يؤهلهم لتصنيف كتب الاختصاص بمختلف أنواعها الكثيرة.

3. البداوة

بالرغم من أن المحاضر عرفت ازدهاراً منقطع النظير في المدن التاريخية الشنقيطية إلا أن بعض الباحثين يرى أنها «لم تبلغ وهجها وتأخذ طابعها المميز ويتسع مداها إلا مع خروجها إلى البادية ودخولها مع نهايات القرن العاشر الهجري في مرحلة جديدة من الانتشار والتمدد في مختلف نواحي هذه البلاد الصحراوية؛ لكي يتحقق عن طريقها في حدود القرن الثالث عشر للهجرة ما يشبه المعجزة الثقافية الشنقيطية في هذا القطر العربي الإسلامي الصحراوي القصي عن المراكز الكبرى للحضارة العربية الإسلامية بوجه عام»⁶ ونتج عن ظاهرة البداوة تغيير في طبيعة استقبال المعرفة والأوعية الحاضرة لها. ذلك أن «الإطار الفيزيقي الاجتماعي الذي تم فيه الفعل الثقافي الموريتاني بمختلف صوره هو أنسب إطار لضياع التراث وأقلها قابلية للحفاظ عليه حياً عبر الحقب الزمنية المتوالية، ذلك أن الإنسان العربي في هذا الإقليم يعتمد منذ تاريخه السحيق وحتى اليوم البداوة نمطاً لحياته، والرعي سبيلاً لعيشه، ويندرج بداوة تحت هذا السبيل وتلك الحياة ترحالاً دائماً وشيماً لأنواء وجوب لا ينقطع لأكناف الصحراء بحثاً عن مرتع أو فراراً من خطر داهم، والبدوي في حله وترحاله لا يصحب من عتاده إلا ما خف وكان ذا

كقولهم: (الحفظ في الصغر كالنقش في الحجر) أو (العلم في صدور الرجال لا في بطون الكتب)، أو (من ترك التكرار لا بد أن ينسى)⁸ لذلك شاعت في أدبيات المحاضرة مجموعة من الأبيات الشعرية تمجد الحفظ مثل قول الشاعر:
عليك بالحفظ دون العلم في كتب
فإن للكتب آفات تفرقها
للص يخرقها والفار يخرمها
والنار تحرقها والماء يغرقها

وقول الشافعي:
علمي معي أينما يمتت يتبعني
قلبي وعاء له لا جوف صندوق
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي
أو كنت في السوق كان العلم في السوق
لقد صار الحفظ علامة التمكن والنبوغ في المجتمع الشنقيطي ومؤسساته المحظية، فنى المختار بن حامد يصف أحد رفاقه بموسوعية الحفظ وذلك على طريقته الأدبية المفعمة بالطرافة، فيقول⁹:
نجل حبيب الله هو الألمي
وهو إذا كان معي في مجمع
فإن حمداً وإن الأصمعي
وابن دريد وابن زيدون معي
وكان من أبرز الأسباب التي أدت إلى انتشار ظاهرة الحفظ؛ «تعذر وجود وسائل الكتابة وبالأخص الورق، واستحالة الكتابة ليلاً لعدم توفر وسائل الإنارة»¹⁰ وهذا ما نتجت عنه ظاهرة (النظمية)؛ المتمثلة في

غناء وأدرك استحالة استعاضته في الدار المقبلة، لذا كثيراً ما يحتاط لنفسه فيستظهر المتون متخففاً من حمل أسفاره غير شاق على مطايه⁷ وقد أنتج النسخ البدوي وعياً خاصاً لدى منتجي المعرفة في هذه البلاد؛ وكان لهم اهتمام خاص بفقه البادية مراعاة للسياق المهيمن وإكراهاته الدائبة، وهو وعي كان وراء منجز الشيخ محمد المامي الذي ترجمه كتاب (البداية)؛ الذي شكل أفقاً معرفياً واعياً لرصد الواقع المحلي وإطاره الفقهي.

4. الحفظ

عُرف الشناقطة بقوة الحفظ وكثرة استظهار المتون، فقد «نجم عن البداوة وعصبياتها كإطار، وعن ظروف العملية التعليمية المحيطة بها ووسائلها البدائية الهشة نزوع بل اعتماداً شبه كلي في الوسط الموريتاني على الذاكرة، نلمس ذلك في استظهار بعض علمائهم -ولا شية فيها- لكتب كالمختصر لخليل ومدونة سحنون أو كتب كالصالح والموطأ أو ألفية ابن مالك ولاميته والتسهيل أو ديوان الستة إلى غير ذلك من المتون المعمول بها، كما نلمس نزوعهم هذا إلى الاعتماد على الذاكرة عبر ما يشيع لديهم من أمثال تمجد الحفظ وتدعو إليه

6 - سيدي ولد أحمد فال؛ مختصر الشيخ خليل بن إسحاق في الفقه المالكي وأسانيده في بلاد شنقيط، مجلة دراسات موريتانية، المركز الموريتاني للدراسات والبحوث الاستراتيجية، العدد 2، يناير 2013، ص 205-206.

7 - عبد الله ولد بن أحمد؛ الشعر العربي الفصح في بلاد شنقيط، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ليبيا، 2009، ص 106.

8 - عبد الله ولد بن أحمد؛ الشعر العربي الفصح في بلاد شنقيط، م. س، ص 109.

9 - محمد بن أحمد بن الجعفي؛ التأثير الأندلسي في الثقافة الموريتانية؛ وقات مع الأصول والعصون في مختلف المعارف والفنون، مجلة أفكار، وزارة الثقافة الأردنية، العدد 278، مارس 2012، ص 20.

10 - محمد المختار ولد اباه؛ تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 2008، ص 441.

الميل إلى تقييد العلوم في أشعار وأنظمة لتسهيل رسوخها في الذهن، وهي ظاهرة فريدة واجه بها القوم إكراهات واقعهم، حيث الترحال الدائم، الذي يجعل الكتب عرضة للتلف والضياع، لذا فقد استعاضوا بنظم معارفهم لسهولة الحفظ، وقلة الورق، بالإضافة إلى سبب نفسي وهو إسباغ الصحة واليقين على كل المعلومات المصوغة في قالب نظمي؛ لذلك تراهم ينظمون الكتاب بأكمله وإن تعددت أجزاؤه»¹¹.

وفي ضوء تركيز البنية الثقافية الشنقيطية على الحفظ؛ هيمنت أيضا ثقافة الشفاهية التي سلكت عبر مسارها الطويل مسلكين اثنين: «أحدهما إخبار شعبي عام يقوم على الاتصال والتواصل اليومي وفقا لمقتضيات حياة البدو الاعتيادية، وأما ثانيهما؛ فخاص بالوسط العلمي وتزدهر فيه الرواية في مجالات بعينها أكثر من غيرها كالتاريخ، وأيام القبائل، والأنساب، والأدب عامة؛ والشعر من فنونه خاصة»¹².

5. ختام

تعد بنية المحظرة إحدى الإنجازات الثقافية النادرة التي عرفتها بلاد شنقيط، وهي بنية معرفي أنتجت أنماطا من العلوم والمعارف ورسخت تقاليد معرفية وثقافية نادرة في بيئة بدوية متقلبة المزاج، وظلت مصدر إشعاع على عدد كبير من دول العالم، وهو ما تشهد عليه حيوية الأصوات العلمية الشنقيطية التي طار ذكرها في أرجاء مختلفة، وقد اتسمت الثقافة المحظرة بمجموعة سمات وإكراهات كان لها الدور الكبير في رسم أسس الأفق الثقافي والمعرفي الموريتاني؛ ولعل من أهم تلك المحددات (البدوة، والترحال، والحفظ، والنظم).

المراجع

بن بونا، المختار: الاحمرار (مع نص ألفية ابن مالك وأنظمة الطرة في الفوائد النحوية لعدد من العلماء الموريتانيين)، صححه وراجع مادته: اباه بن محمد عالي بن نعم العبد، جمعه وأعد ونشره: محمد محفوظ بن أحمد، ط 1، 2003.

بن المحبوبي؛ محمذن بن أحمد: التأثير الأندلسي في الثقافة الموريتانية: وقفات مع الأصول والغصون في مختلف المعارف والفنون، مجلة أفكار، وزارة الثقافة الأردنية، العدد 278، مارس 2012.

بن محمد ناصر؛ محمد بباة: البادية الموريتانية والثقافة المكتوبة، حويلات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مركز الدراسات والبحوث، جامعة نواكشوط، العدد 9، 2011.

الشنقيطي، أحمد ابن الأمين: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مطبعة محمد أمين الخانجي الكتبي وشركاه، مصر، ط 1، 1911.

ولد اباه؛ محمد المختار: تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 2008.

ولد أحمد فال؛ سيدي: مختصر الشيخ خليل بن إسحاق في الفقه المالكي وأسانيده في بلاد شنقيط، مجلة دراسات موريتانية، المركز الموريتاني للدراسات والبحوث الاستراتيجية، العدد 2، يناير 2013.

ولد بن احميده؛ عبد الله: الشعر العربي الفصيح في بلاد شنقيط، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ليبيا، 2009.

ولد عبدي؛ محمد: السياق والأنساق في الثقافة الموريتانية: الشعر نموذجًا، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سورية، دمشق، ط 1، 2009.

اليدالي، محمد: شيم الزوايا، تقديم وتحقيق: محمذن ولد باباه، منشورات بيت الحكمة، تونس، 1990.

اليعقوبي، محمد مولود بن أحمد فال الموسوي (آد): مطهرة القلوب من قثرة العيوب، مراجعة وتحقيق: محمد عثمان بن محي الدين بن أبوه، الناشر: أحمد سالك بن محمد الأمين بن أبوه، ط 2، د. ت.

11 - محمد ولد عبدي؛ السياق والأنساق في الثقافة الموريتانية: الشعر نموذجًا، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سورية، دمشق، ط 1، 2009، ص 94.
12 - عبد الله ولد بن احميده/ الشعر العربي الفصيح في بلاد شنقيط، م. س، ص 133.



السرديات ما بعد الكلاسيكية ونصية النص السردية: سؤال السردية

السرديات في التجربة العربية: في الفرق بين النثر والسرد

1. ومن أبرز المشاغل النقدية، حضورا في الدرس السردية العربي المتعلقة بتحديد نصية النص السردية العربي، وأكثرها إثارة، قضية نصية النص السردية، فقد سعى دارسو السردية العربية، وهم يواجهون تظهر هذه السردية في النص السردية العربي القديم والحديث — إلى التفريق بين أفق من البحث في سردية النص العربي يتعين على الباحث في السرديات في التجربة العربية التفتن اليهما: أفق يوسع من دائرة اشتغاله، فيفتح مدونته على كل نص نثري حقق سردية من الكتابة، حتى وإن كانت هذه السردية لا تفي بكل شروط أدبية النص السردية، أو تحققها بمستويات من النثرية الأدبية بسيطة، وموضوع البحث عند هؤلاء هو النثر. أما الأفق الثاني فيضيق من دائرة البحث في نصية النص السردية، فيحصرها في مدونة النصوص النثرية المحققة لسردية أدبية مستويات الإمتاع والأنس فيها آتية من تحقق شروط الأدبية في النص السردية، ودرجات السردية في هذه المدونة متفاوتة في بساطتها وتركيبها، وإن كانت تدخل النصوص في خانة السرد لا

على منظري السرديات في التجربة العربية، الساعين إلى ترشيد الفكر السردية العربي، أن ينشغلوا مرحليا بقضايا نصية النص السردية الأدبي المرتبطة بشروط تحقق الأدبية فيه، وأن ينكبوا تلك التي لا تدخل في دائرة نثرية الإمتاع والمؤانسة²، مستبعدين إلى حين البحث في نصية النص السردية غير الأدبي المتحقق من خلال نثرية بلاغية في كتب التأليف غير الأدبي، التي انشغل بها نظراؤهم في البيئات الغربية، تعميقا منهم للبحث في قضايا السردية في التجربة العربية، واهتماما منهم في توجيه الباحثين السرديين العرب إلى مشاغل نقدية محددة ذات خصوصية محلية، طبعت الفكر النقدي العربي بسمة بحثية، ما زال محتفظا بسلطة تأثيرها ومتعة تداولها وأنس قراءتها، ولعله يحتفظ بها حينا من الدهر، لارتباطها بهوية لغوية لصيقة بعبقورية اللغة العربية — هي احتفاء هذا الفكر في البحث في نصية النص بما يحقق أدبيته، من مآتي الحسن والإمتاع فيه، وزهد هذا الفكر في ما لا يحقق تلك السردية بالنسبة للنص السردية، ولا يكشف عن مستويات الإمتاع والأنس في السرد، سواء، أكان منشؤها القصة أو الخطاب، المظهرين المحققين لنصية النص السردية؟.

0.0. — تطرح منذ بعض الوقت في البيئات العلمية العربية المنشغلة بنصية النص السردية قضايا نظرية، لعل من أبرزها حضورا في الدرس السردية، تلك المتعلقة بحدود الانشغال بالنص النثري، والتفريق بين النص النثري المحقق لشروط أدبية القول الأدبي¹، والنص النثري المحقق لشروط البلاغة والتواصل العادي، أي بين النص النثري المصنف في دائرة الأدب والنص المصنف في دائرة البلاغة والإبلاغ. ومن ثم تتحدد نصية النص النثري هنا، بما يكون به النص نصا أدبيا، والخطاب حوله داخل في الدرس الأدبي، وبين ما به يكون النص نصا بلاغيا، والخطاب حوله داخل في الدرس البلاغي. فنصية النص من هذا المنظور هي المحددة للمشغل العلمي للدرس، وهي الموجهة للدارس المنشغل بقضايا النظرية النقدية، والمواجه لأسئلتها المنهجية.

1.0. والقضية التي تثار هنا بالنسبة للمنشغلين بنصية النص السردية، في دوائر مخابر السرديات ومجالس بحثها في الحواضر العلمية العربية المهتمة بتنمية الفكر السردية العربي، هي إثارة علمية تحضر باستمرار في فكر المنشغلين بقضايا هذا الفكر والمواجهين لأسئلته النقدية، يستبطنها السؤال: هل

1 - صالح بن رمضان: أدبية النص النثري، تونس 1995 ص/ 16
2 - أخذت هذه النثرية في نثر العربية مستويات من التطلع بمحة ذات دوائر من الكثافة الفنية متفاوتة في الإمتاع والأنس على يد كتاب وساردن عرب في مختلف عصور تطور النثرية العربية منذ الجاهلية إلى اليوم.



السريدين، وصياغة فكر أدبي عربي محكوم بمرتكزات النظرية العامة للسرديات ومحدداتها المنهجية. ومن هنا كانت الحاجة — في نظرنا — ماسة إلى تدقيق لنصية النص السريدي في الاستعمال العربي، نريد هنا أن نسهم في ضربه، بحث يفرق بين النثر والسرد، ويضع حدا نقديا بين المفهومين: يعطي لكل منهما قيمة خلافية (مثلا تعطي النقطة في كتابة الجيم قيمة خلافية تميزها عن الحاء)، تميزه عن الآخر في الفكر الأدبي العربي، وتضبط استعمال المفهومين النقديين في التصورات النقدية للنص السريدي في التجربة العربية، فتعطي «النثر الفني» قيمة خلافية يحتفظ من خلالها بحضوره في «المصطلحية»⁴ النقدية العربية، باعتباره نمطا من الكتابة السردية التراثية الأدبية، التي أنتجتها النثرية العربية التراثية، له أنواعه وأشكاله السردية التراثية التي يتحقق من خلالها (الحديث، الرسالة، المقامة، ..)، وله نصيته التي تجلي خطابه السريدي، وتكشف عن سرديته ومآتي الإمتاع والمؤانسة فيه. وهي قيمة خلافية، يحتفظ بها هذا المصطلح النقدي التراثي في الدراسات النقدية القديمة بتداوله النقدي، ويكتسب بها أدبية قوله، ويبسط نفوذ خطابه الأدبي في انتماءه إلى خزانة السرد الأدبي لا النثر البلاغي، إلى جانب مصطلح السرد الحديث، باعتبارهما وجهين لنصية النص السريدي.

2.1. وإنما يتحدد الفرق بين الاثنين هنا، في دلالة كل منهما على صنف من السرد له نصيته المحددة لسردية خطابه، فتصنف نصوص النثر الفني في قائمة الأنواع السردية التراثية، ونصوص السرد الحديث

النثر، فتصنفها في قائمتين: قائمة النصوص النثرية وتطلق عليها مصطلح «النثر الفني»، وهي دائرة من النثرية العربية، تجمع عند النقاد القدامى مستويات من تطويع النثر العربي تقتصر على تطويعه في الطبقة البلاغية والأدبية دون التواصلية، ولذلك جمع النقاد القدماء في مدونة النثرية العربية النص النثري البلاغي والأدبي فصنفوا الرسائل والخطب نصوصا أدبية، وسار على هذا التصنيف من بعدهم نقاد ودارسو أدب كثر، وأنجزت في هذا المشغل النقدي دراسات وأعدت أطاريح علمية مهمة³، وقائمة النصوص الحديثة وتسميها ب «السرد الأدبي» ومن هذه الخانة نشأ في درس السريدي العربي في التجربة العربية، هذا التفريق في مدونة النص السريدي العربي، بين القديم والحديث، الذي أحدث مع الوقت ارتباكاً في المصطلح السريدي، وفي تحديد نصية النص السريدي خاصة، يحتاج فيه الفكر الأدبي العربي المنشغل بقضايا السرد اليوم، إلى تدقيق لمفاهيم ومصطلحات، بها تتحدد نصية النص السريدي، وتبرز ملامح السردية فيه.

1.1. وقد خلق هذا الارتباك الناشئ عن عدم التفريق بين نصية النص السريدي وسردية خطابه في التجربة العربية في المصطلح السريدي ثنائيات: النثر والسرد، والنثر الفني والسرد الأدبي، والنثر الأدبي القديم والسرد الأدبي الحديث، وغيرها من الثنائيات التي تعترض تطور الدرس السريدي العربي في البيئات العلمية العربية، وتواجه أسئلتها المنهجية السريدين العرب، في بناء النظرية وضبط المصطلح

في الأنواع السردية الحديثة. ويأخذ كل من المصطلحين وقعه⁵ المصطلحي في الاستعمال النقدي، «ليشمل الأول النصوص السردية المصنفة في خزانة السرد الآتية من الحواضن الحكائية والمحايل النثرية التراثية، المرتبطة بالتراث السريدي للغة الأم، فلكل لغة اليوم حواضنها الحكائية ومحايلها النثرية، واللغة

3 - من أشهر هذه الأطاريح أطروحة زكي مبارك المعنون ب «النثر الفني في القرن الرابع الهجري» ثم ناقشها سنة 1931 بجامعة باريس، وقد مثلت سلطة نقدية ومرجعاً لكثير من التصورات والأطاريح النقدية، وقد أعيد نشرها في طبعات عديدة منها طبعة شركة نوايع الفكر، القاهرة 2009.

4 - توفيق الزيندي: جدلية المصطلح والنظرية النقدية، فراج 2000، تونس 1998 ص 43 — 53

5 - توفيق الزيندي، المرجع السابق، ص 47.

والترسل⁸» في النثرية البلاغية إلى ظهور نوعيها النثريين (الخطبة والرسالة) اللذين ولدتهما مقامات ارتجال المتكلمين الكبار من بلغاء العربية الأول وكتابها، في اللحظة الثانية من تطويع الفصحى⁹، ثم «أدى الاشتغال باللغة في النثرية الأدبية في مقام الإبداع إلى ظهور نوعيها الأدبيين (الشعر والنثر الفني) اللذين أنتجتاهما مقامات إبداع شعراء العربية وناثريها، من الشعراء الأول السابقين لجيل امرئ القيس، الذين ظهر الشعر العربي في نشأته الأولى على ألسنتهم في محافل ارتجالهم، ومن كتاب العربية الأول الذين ظهر النثر الفني على أيديهم في حواضر كتابتها المتعددة»¹⁰.

2. ولئن أبان الاشتغال بالتفريق في الدرس السردي العربي بين أنواع النثر الفني وأنواع السرد الحديث عن مشاريع للبحث السردى واعدة، ومقالات للسردية خصبة للمشتغلين بسرديات الأنواع في التجربة العربية، مازال البحث فيها بكرا، وإقدام المنظرين للسردية العربية على اقتحام حقولها، فيه تردد، فإن الدعوة إلى الاشتغال بقضايا نصية النص السردى العربي تفتح للمنشغلين بتطوير السرديات في البيئات العلمية العربية أفقا من التنظير للأنواع السردية التراثية منها والحديثة¹¹، مازالت خاناته فارغة، كما يتيح وصف سردية هذه الأنواع مساحات من اكتشاف مآتي الحس والإمتاع في خطابها السردى ما زالت معاول المنشغلين بالسرديات الوصفية والتطبيقية، لم تصل إليها.

والأدبية⁶. «فأدى تطويع اللغة في مقام التخاطب في النثرية التواصلية إلى ظهور شكلها التعبيري (الحكم والأمثال)، اللذين جريا على ألسنة متكلمي العربية الفارحين في اللحظة الأولى من تطويع الفصحى في مقامات الارتجال⁷، و «أدى تطويع اللغة «في مقام التخاطب

العربية والأمة العربية من بينها، التي ولدت أنواعها السردية التراثية المعبرة عن تطور نثريتها الأدبية واحتضانها لمروياتها السردية، فلغة العربية محافلها النثرية التراثية وحواضنها الحكائية، التي تم فيها تطويع اللغة العربية، وفيها نشأت نثرياتها التواصلية والبلاغية



6 - محمد الأمين مولاي إبراهيم: السرديات التاريخية والنثرية اللغوية: حولية كلية الآداب والعلوم الإنسانية العدد 15 / 2020 ص 8
7 - محمد الأمين مولاي إبراهيم: السرديات التاريخية والنثرية اللغوية: حولية كلية الآداب والعلوم الإنسانية العدد 15 / 2020 ص 8
8 - صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية، ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، دار الفراق، بيروت، ط 2، 2007 ص 162
9 - محمد الأمين مولاي إبراهيم: السرديات التاريخية والنثرية اللغوية: حولية كلية الآداب والعلوم الإنسانية العدد 15 / 2020 ص 20
10 - محمد الأمين مولاي إبراهيم: السرديات التاريخية والنثرية اللغوية: حولية كلية الآداب والعلوم الإنسانية العدد 15 / 2020 ص 8
11 - أروى المؤتزون في مؤتمر «سرديات ناكشوط 2023» في توصيات مؤتمر تخصص الورقة العلمية لمؤتمر «سرديات ناكشوط 2025» القادم لسرديات الأنواع وسؤال التنظير.

السرديات ما بعد الكلاسيكية في التجربة العربية وسردية النص: التوسيع والتضييق.

1.2. ولئن لوحظ في المتداول العلمي للسرديات العربية اليوم، اتساع دائرة البحث في المشاغل العلمية «للسرديات ما بعد الكلاسيكية» المرتبطة بالمشغل الثقافي، والمتصل بانفتاحها على اختصاصات وعلوم حافة، سيرا على سنة السرديين التوسعيين في توسيع «حدود السرديات» لتشمل موضوعات تتعد شيئاً فشيئاً عن أرضية الانشغال بالأدبي في الخطاب السردى، ومستويات الإمتاع والمؤانسة فيه، وتوغل في الانشغال بالبحث في السردى — فإن السير على خطا هؤلاء في نظرنا واقتفاء سيرهم يبعد الفكر الأدبي العربي عن جماليات النص الأدبي ويضعف حاسة الانشغال بالأدبي موضوعاً للنقد الأدبي، ويوجه البحث الى وجهة للنقد الأدبي لم تك هي قبلة أصحابه، ويحرك الأقدام على أرضية ملعب، لم يكن دائماً مهياً للعب. لذلك يتعين في نظرنا انخراط السرديين العرب في جهود تطوير السرديات ما بعد الكلاسيكية في التجربة العربية، انطلاقاً من جهود أصحاب السرديات التوسيعية في تطويرهم لأطروحة السرديات الحصرية وأدواتها المنهجية، والسير على طريق هؤلاء في التحسين من الأدوات الواصفة لنصية النص السردى وسردية خطابه، وإعطاء الأولوية للجهود البحثية والعلمية المنخرطة في تطوير الدراسات الأدبية بالبحث في المنهج سيرا على خطى الرائي جيرار جنت.

في تحسين كفاءة أدوات إنتاج علم السرديات للمعرفة الأدبية وقدرتها على الإمساك بتلابيب سردية خطابها المتمردة. ولن يتم ذلك إلا بالانحياز إلى تطوير الفكر الأدبي المؤسس على علم الأدب، وامتلاك أدوات إنتاجه للمعرفة، والتفكير في خيارات تطوير الأبعاد المنهجية والاجرائية من النظرية العامة لعلم الأدب (الأدوات المنهجية)، واختصاص السرديات منه خاصة. لذلك يتعين في نظرنا انشغال السرديين العرب بالبحث في السرديات الوصفية وأدواتها الاجرائية، وتعميق مدارك مبحث المنهج والأدوات، والتخلي مرحلياً عن مباحث النظرية والتنظير إلا في حدود ما تقدمه نظرية الأجناس الأدبية، لأن ذلك سيدخل البحث في مشاغل علمية أكثر التصاقاً بعلم الأدب، ويبعد الدرس السردى عن نظريات السرد، لارتباطه بتحسين أدوات إنتاج المعرفة وتأسيس الصياغات النظرية والمنهجية لعلم الأدب، وتجدير فكره الأدبي في البيئات العلمية العربية في وجه النقد الأدبي السائد المنطلق من نظريات السرد، وسطوة خطاب التحليل البنيوي للسرد المرافق له.

السرديات ما بعد الكلاسيكية والبحث في المنهج: التمسك بمشغل السردية التعبيرية

2.2. إن الانخراط في مشروع جيرار جنت بالبحث في المنهج¹²، وما سماه سعيد يقطين بـ «سرديات الخطاب¹³»، هو ما ينبغي أن ينشغل به راهن البحث السردى عند السرديين والباحثين العرب

في تطويرهم للسرديات ما بعد الكلاسيكية في التجربة العربية، وتنمية الفكر الأدبي العربي وتجدير تطبيقات علم الأدب، لما يتيح هذا المشغل العلمى من تطوير لمنهج وأدوات إنتاج المعرفة الأدبية في الدرس الأدبي في كليات الآداب في الجامعات العربية، وانتقال الدرس الأدبي فيها من درس في مناهج البحث في الأدب إلى درس في منهج علم الأدب، ومن درس في التحليل السوسيولوجي والتحليل البنيوي للسرد إلى درس في تحليل الخطاب السردى. وإن رهانات البحث العلمى العربى في تطور الدرس السردى العربى يتطلب في نظرنا السير على نهج السرديين المتمسكين بالسردية التعبيرية للخطاب السردى مصدراً لأدبية النص السردى في تطوير الفكر الأدبي للسرديات ما بعد الكلاسيكية، بـ «التركيز على التعبير إذ هو الذي بواسطته تتجسد الأفعال والأحداث»¹⁴ وبالبقاء في مجال سرديات الخطاب والانحياز لنهج شيخها جرار جنت في التمسك بالصيغة السردية أرضية للتحرك، لاكتشاف مناطق من سردية الخطاب مازالت بكراً، يتعين الوقوف عليها، توسيعاً لما ضيقه المتقدمون (أصحاب السرديات الحصرية) ونقاشاً لمسار في التوسع أقدم عليه المتأخرون¹⁵، تراجعت فيه مساحة الانشغال بمكونات الخطاب من النص السردى، في السرديات التوسيعية لصالح مساحة الانشغال بمكونات القصة.

3.2. - ولئن حققت السرديات في التجربة العربية ما حققت، فإن أولويات البحث في سرديات ما بعد الكلاسيكية اليوم- في نظرنا-

12 - 1973 Genette Nouveau discours du récit ; seuil

13 - سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1989، ص 40

14 - سعيد يقطين، قال الراوي البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1996، ص 16

15 - الإشارة هنا إلى جهود السرديين الجدد في نقاشهم وحوارهم مع السرديين الحصريين حول حدود السرديات، وتوسيع ما ضيقه هؤلاء، وخاصة محمد فلييب ماتيوكولاس في مقاله المشهورة «حدود السرديات» انظر Philippe Mathieu-Colas Michel Mathieu - colas : Frontière de la narratologie, in poétique 65 février 1986 p 92

السرديات ما بعد الكلاسيكية وحذق أدوات السرديات: توسيع حدود سرديات الخطاب

للسرديات في التجربة العربية في وجه التحليل البنيوي للسرد سائد حينها في البيئات العلمية العربية. وسيؤدي تراكم هذا الوعي لاحقاً إلى ظهور ثلاثة أجيال من الباحثين المنشغلين بالسرديات التطبيقية في البيئات العلمية العربية، حيث أعدت أطاريح وألفت كتب غلبت عليها الأبعاد الاجرائية والتطبيقية لاختبار أطروحة السرديات على النص السردى العربى، مما ساهم في تجذير تطبيقات السرديات الحصرية في التجربة العربية، كما قدمها الدرس السردى في البيئات العلمية وبسطها الكتاب الجامعي في المتداول النقدي العربى. غير أن الوعي النقدي بالمدارك النظرية والمنهجية للسرديات في التجربة العربية، قد ظل في تطبيقاته المنهجية رهين ما تسمح به أطروحة السرديات الكلاسيكية من فهم لنظرية السرديات الحصرية وحذق لأدواتها المنهجية، فظل الولاء للحدود التي حددها السرديون الأول لموضوع للسرديات قائماً، فلم تتجاوز جهود أصحاب هذا الخيار هذا الحد في تعميقها لمدارك السرديات في التجربة العربية — إلى مناقشة استدراقات السرديين التوسيعيين على طرح السرديين الأول، تعميقاً لفهم أطروحة السرديات ما بعد الكلاسيكية في التجربة العربية¹⁶ وتنمية لمدارك تحليل الخطاب السردى وتطبيقاته المنهجية، ومساهمة من هؤلاء في تعميق الوعي النقدي بقضايا السرديات وتطبيقاتها في التجربة العربية.

3. لقد سعى رواد السرديات في التجربة العربية إلى الانشغال بالسرديات الوصفية¹⁸، حيث اتجهوا في الدرس الجامعي (توفيق بكار، محمود طرشونه وغيرهما....) وفي الكتاب النقدي (سعيد يقطين، سيزا قاسم، عبد الله إبراهيم، محمد الخبو، وغيرهم....) إلى الانشغال بتقديم الأدوات المنهجية الواصفة لسردية النص، وتطبيقها على النص الروائي العربى خاصة، في سعى من هؤلاء الرواد إلى إشاعة وعي نقدي بالسرديات مناهض للمقاربات السردية السائدة حينها، وخاصة منها، توجهات أصحاب التحليل البنيوي للسرد. وقد كانت هذه اللحظة من ظهور السرديات في التجربة العربية أساسية في تعميق مدارك الوعي النقدي بالأدوات المنهجية الواصفة للخطاب السردى وتطبيقاتها، من خلال تقديم هؤلاء الرواد لأطروحة السرديات الحصرية، والكشف عن التطورات النظرية والمنهجية التي مرت بها في التجربة العربية خلال سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي.

1.3. وقد كانت جهود هؤلاء من الرواد والذين جاؤوا من بعدهم، (محمد القاضي، ومحمد نجيب العمامي، محمد الداوي، سلوى السعداوي، وكاتب هذه الأسطر وغيرهم ...) أساسية في تعميق المدارك النظرية والمنهجية

يظل الانشغال بأدبية الخطاب السردى، ومصادر السردية فيه، تعميقاً لمدارك السرديات الوصفية في التجربة العربية، كما أسس لها الرواد من السرديين العرب، وإضاءة لمناطق من سرديّة الخطاب في النص السردى العربى، لم تضئها أدوات المشتغلين بالسرديات الحصرية، وسيرا على خطى سعيد يقطين في اشتغاله بوصف سرديّة الخطاب الروائي العربى، وتمسكاً بخياره المنهجى في التوكؤ على سرديات الخطاب¹⁶ أداة لوصف سرديّة النص السردى العربى ووصف مواطن الإمتاع والمؤانسة فيه. إن تحسين الأدوات المنهجية الواصفة لسردية النص السردى باتكائها على مكونات الخطاب السردى لا القصة، والانخراط في الجهود البحثية المنحازة إلى المداخل التعبيرية مصدراً للسردية، يجعل الدرس السردى العربى في نظرنا، يمتلك أدوات منهجية لوصف سرديّة النص السردى العربى أكثر ملاءمة، وأقدر على الإمساك بتلابيب سرديّة النص والكشف عن مستويات الإمتاع والمؤانسة فيه. وإن الانضمام لهذا الخيار في تحسين كفاءة أدوات السرديات ما بعد الكلاسيكية في التجربة العربية، «يخدم الفكر الأدبى العربى ويطور تجربة علم الأدب في البيئات العلمية العربية»¹⁷، وينقل قضايا السرديات وأسئلتها المنهجية إلى دوائر من البحث العلمى، تنشغل ب «الأدبى» من النص السردى، موضوعاً لسرديات ما بعد الكلاسيكية.

16 - سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربى، بيروت - الدار البيضاء 1989 ص 40
17 - محمد الأمين مولاي إبراهيم: علم الادب: النظرية والأدوات، مجلة دى الحجاز، جامعة شعيب الزكالي، العدد الثاني، أبريل 2021 ص/ 58
18 - تتخذ السرديات الوصفية موضوعاً لها الاختصاص من علم السرديات الذي ينشغل بالأدوات الواصفة للسردية النص السردى، قياساً على اللسانيات الوصفية،
19 - محمد الأمين مولاي إبراهيم: السرديات. والسرديات ما بعد الكلاسيكية في التجربة العربية: قضايا نصية النص وأسئلة سرديّة الخطاب كتاب «مؤتمر سرديات 2023» المنظم من طرف وحدة بحث «السرديات وتحليل الخطاب» بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة نواكشوط أيام 25-23 مايو 2023، دار الأمان، 2025، ص 43



الأستاذة خديجة الشاه
باحثة في الدراسات اللغوية والأدبية

النقد الأدبي من الانطباعية إلى المعيارية: قدامة بن جعفر نموذجاً

مقدمة:

نشير إلى أن النقد الأدبي يعد الحارس الأمين، والميزان القويم الذي يضبط مسيرة النقد الأدبي، ويحميه من الابتذال برصد مكامن الإبداع والإسفاف فيه، مما يدفع الأدباء إلى الابتكار والتجديد، ويمنح النص الأدبي قيمته التاريخية والفنية. فماذا تعني كلمة (نقد) في اللغة والاصطلاح؟ وكيف تطور النقد من الذوق والملاحظة إلى المعيارية والتقنين؟ ومن هو قدامة بن جعفر؟ وماذا عن نظريته النقدية؟ ذلك ما سنتناوله في السطور القادمة، من خلال تقسيم الموضوع إلى مبحثين: نتناول في أولهما الأبعاد الدلالية والاصطلاحية لمفهوم النقد، منتبعين مسيرته التاريخية عبر العصور (الجاهلي، الإسلامي، الأموي، والعباسي)؛ ونخصص ثانيهما للتعريف بقدامة بن جعفر ونظريته النقدية.

المبحث الأول: النقد الأدبي: مفهومه وتأريخه

فالنقاد لا يكتفي بالوصف، بل يعيد قراءة النص برؤية فنية تجعل من العمل النقدي نفسه قطعة أدبية متمعة، بمعنى أن النقد الأدبي يعد علماً من حيث الأدوات والمنهج، ويعد فناً من حيث الممارسة والذوق والتطبيق.

وبين النقد والانتقاد فروق عديدة منها: أن النقد يبحث عن مواطن الجودة والرداءة بشكل موضوعي، ويقترح البدائل، مركزاً على الصناعة، لا على الصانع. أما الانتقاد فهو البحث عن العثرات، وتعقب الزلات، والتغافل عن الحسنات، مع التركيز على الصانع، لا على الصناعة.

يدرس الآثار الفنية من شعر ونثر بواسطة منهج علمي دقيق، وله وظائف عديدة منها: تحليل النص الأدبي، وتفكيك بنيته وتفسيره وشرح أبعاده الجمالية والدلالية والحكم عليه ببيان مواطن القوة والضعف فيه، ومقدار أصالة الأديب، أو تأثره بغيره، مستنداً على أسس منطقية ومعايير موضوعية، مستمدة من علوم اللغة والبلاغة وعلم النفس والاجتماع؛ فهو يستخدم أدوات تحليلية دقيقة لتفكيك النص ودراسة سياقاته التاريخية وبنيته اللغوية مما يجعله يقترب من الصرامة العلمية. وهو كذلك نشاط إبداعي، يعتمد على بصيرة الناقد وذوقه الشخصي، وقدرته على تذوق الجمال.

نسعى في هذا المستوى إلى تعريف النقد الأدبي في اللغة والاصطلاح، متبعين مراحل نشأته وأطوار تشكله من الملاحظة إلى التدوين.

المطلب الأول: مفهوم

النقد في اللغة والاصطلاح

نشير إلى أن النقد أحد المفاهيم اللغوية التي انتقلت من معنى مادي، ملموس في الأصل اللغوي، إلى معنى معنوي وفكري دقيق في الاصطلاح، ذلك أن النقد يطلق في اللغة بمعنى تمييز جيد الدراهم من زائفها، كما في قول المثقب العبدى في وصف ناقته¹:

تنفي يداها الحصى في كل هاجرة
نفي الدراهم تنقاد الصيارف
والنقد في الاصطلاح: علم أو فن

1 - أبو الفتح عثمان بن جني، المحاضر، ج (2)، ط 1، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1952، ص: 167.

الخليفة عمر للبيعة ضمن وفد من قومه، فسأله عمر: «أأنت ابن هرم صاحب زهير؟» فأجابته الرجل: نعم، فقال عمر: «أما إنه كان يقول ذا فيكم فيحسن؟» فقال الرجل: كذلك كنا نعطيه فنجزل، فقال عمر: «ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم» كما تذكر المصادر أيضا أن الفاروق سأل كعب بن زهير مرة: «أين الحل التي كساها هرم أبك؟» فقال كعب: أبلاها الدهر، فقال عمر: «لكن الحل التي كساها أبوك هرما لا يبليها الدهر»؛ ومن شواهد استجادة عمر شعر زهير، ما رواه الجاحظ من أن عمر رضي الله عنه قال لكعب مرة: «أنشدني لأبيك» فأنشده:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا قوم أبوهم سنان حين تنسبهم طابوا وطاب من الأفلاذ ما ولدوا .

فقال عمر: «وددت لو أنه قيل في أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم»⁴

وقد رغب الإسلام عن الأغراض الشعرية الأكثر شيوعا في الشعر الجاهلي، كالغزل والهجاء والفخر بالآباء والأجداد... مما أدى إلى خفوت أصوات الشعراء، في صدر الإسلام إذا ما استثنينا ما يتبادله شعراء المدينة (حسان بن ثابت، عبدالله بن رواحة، كعب بن مالك) وشعراء مكة (عبد الله بن الزبير، أبو سفيان بن الحارث، ضرار بن الخطاب)، من قصائد ترد على شكل بيانات عسكرية عقب انتهاء المعارك.

أما في العصر الأموي فقد حل مربد البصرة محل سوق عكاظ،

من أخلاق حميدة، صار ينظر إلى الشعر من خلال انسجامه معها، فجودة الشعر إذا أصبحت تقاس بمقياس ديني خالص، فما وافق الدين الإسلامي فهو شعر جيد، وما خالفه فهو من كلام الضالين الذين يهيمون في كل واد، ويعمهمون في كل ناد. وقد شاع بينهم بيت حسان بن ثابت رضي الله عنه²:

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا وهي المقولة التي تبناها الأموي لاحقا: «أعذب الشعر أصدق» وكان الصحابة - رضوان الله عليهم - يستجيدون أشعار لبيد بن ربيعة في الحكمة، كقوله³:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل وتذكر أمهات الكتب روايات مختلفة بألفاظ متقاربة بشأن هذا البيت، لعل أرجحها ما أورده البخاري في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومساقه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حق صدر هذا البيت (ألا كل شيء ما خلا الله باطل)، إنه: «أصدق ما قالت العرب»

وأنه صلى الله عليه وسلم فند عجز البيت نفسه (وكل نعيم لا محالة زائل)، فقال: «إلا نعيم الجنة فإنه لا يزول»⁴

وقد مارس بعض الصحابة النقد بهذا المفهوم، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقدم زهيراً على الشعراء، ويعلل ذلك بأنه «لا يعاظم في الكلام ولا يمدح أحدا إلا بما يكون فيه»⁵، ويعتبر هذا أول حكم نقدي معلل .

وقد أورد صاحب كتاب الأغاني أن أحد أبناء هرم بن سنان وفد على

المطلب الثاني: النقد الأدبي من الانطبائية إلى المعيارية.

يمكن القول إن النقد الأدبي عاش جنباً لجنب مع الشعر، منذ استمع العرب إلى الشعر، وأدلووا بملاحظاتهم حوله، وكان للنقد دور بارز في تهذيب الشعر وتقويمه، من مرحلة الحدا إلى الترانيم إلى سجع الكهان إلى الرجز إلى أن استوى قصيدا متينا .

كل ذلك جعلنا نعتقد أن الشعر مر بمرحلة طويلة قبل العقد والتهذيب، قام بها ومهد لها النقد.

يوجد هذا النقد في احتكام الشعراء إلى النابغة الذبياني، وفي انتقاد طرفة لخاله المتلمس، كما يوجد هذا النقد في قصة أم جنب واحتكام امرئ القيس وعلمة إليها، ولا تفوتنا الإشارة إلى تلك القصائد المنتقاة والمختارة عند العرب، والتي أطلقوا عليها ألقاباً تميزها مثل: المعلقات والسموط.

مما يجعلنا نميل إلى القول إنه في العصر الجاهلي كان هناك نوع من النقد الأدبي عاش جنباً لجنب مع الشعر مستمداً قيمه ومعاييره من العرف اللغوي السائد في تلك الفترة، ومن القيم الاجتماعية والأدبية الموروثة، ينضاف إلى ذلك الذوق العام .

ومهما يكن، فإن النقد في العصر الجاهلي ظل تأثيرياً، انطبائياً، غير معلل، قوامه الذوق الفطري والأحكام المعممة وغير المعللة .

وحين نصل العصر الإسلامي نلاحظ أن النقد أخذ يسير وإن بخطى وثيدة نحو النضج، فقد نتج عن الثورة التي أحدثتها الإسلام نشأة مقاييس وقيم جديدة وفقاً لما جاء به الدين الإسلامي من قيم، وما دعا إليه

2 - ديوان حسان بن ثابت، ط2، ج: وليد عرفات، دار صادر، بيروت، 2012، ج 1، ص: 417.

3 - شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، ج: إحسان عباس، ط1، مطبعة الحكومة، الكويت.

4 - صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحدا، وما يكره منه.

5 - حمد مندور، الأدب وفنونه، ط2، الفجالة، القاهرة، 1969 م، ص 136.

6 - أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، ج3، ط1، مطبعة بلاقي، القاهرة، 1285 م، ص 454.

الشعر حسب لفظه ومعناه، وعرف بنظام القصيدة، والمطوع والمصنوع من الشعر .

وجاء في كتابات الجاحظ (255هـ) آراء نقدية متناثرة، خصوصاً في كتابيه (الحيوان، والبيان والتبيين)، كما ظهرت كتابات نقدية أخرى كان الهدف منها توضيح المعاني القرآنية، وكان لها عظيم الأثر في ازدهار النقد البلاغي، وغيره من المعارف، نذكر منها: مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى (209هـ)، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (276هـ).

وفي هذه الفترة الزاخرة بالتأليف والمعارف اللغوية والنقدية والبلاغية والعلوم المختلفة، نشأ قدامة بن جعفر، وأحدثت تلك الآراء، وبدأ صياغة فكرة جديدة، ونهج نهجا مغايراً، يسعى إلى وضع مقاييس واضحة للنقد، تحد من شطط الأحكام وذاتيتها .

وقد شهد عصره تفاعل الحضارة العربية مع حضارات أمم أخرى كالفرس والهند والروم واليونان، عن طريق الترجمة وما رافقها من ثورة ثقافية.

أما عن ثقافته الأصلية فهي قسمان:

- عربية خالصة مادتها تاريخ العرب ونوادرهم، وحفظ أيامهم وأنسابهم
- لوم الدين كتأويل الكتاب المبين وشرح الحديث الشريف ورواته، ولم يكن حظه من الثقافة اليونانية باليسير، فقد اشتهر بإجادة علم الحساب والمنطق والبلاغة حتى عده ابن النديم أحد الفلاسفة الكبار، وممن يشار إليهم في علم المنطق، ولم تقتصر إفادته من الفكر اليوناني على الفلسفة والمنطق، بل تجاوز ذلك إلى علوم جغرافيا الأرض وأقاليمها كما في كتابه (الخراج)، وهو الكتاب الذي يعد الينبوع الذي استمد منه ابن خلدون آثاره، حسب ابن النديم.
- وقد ذكر ابن النديم لقدامة كتباً

النقد الأدبي هي صحيفة بشر بن المعتمر (210)، وهي مجموعة من النصائح المتعلقة بالأوقات المناسبة للعمل الشعري، وفيها حديث عن الطبع والصنعة وكيف أن لكل مقام مقالاً يناسبه.

وألف محمد بن سلام (231هـ) كتابه «طبقات فحول الشعراء» وهو كتاب مهم في بابيه، وفيه بحث في أوليات الشعر العربي، نشأته وتنقله بين القبائل وانتحاله، ثم قسم الشعراء طبقات، جاعلاً في كل طبقة أربعة عشر شاعراً .

وألف ابن قتيبة (276هـ) كتابه «الشعر والشعراء» وفي مقدمته أثار كثيراً من المسائل النقدية، فقسّم جعفر، وأحدثت بهذه المصادر، وتعرف جديدة، ونهج نهجا مغايراً، يسعى إلى وضع مقاييس واضحة للنقد، تحد من شطط الأحكام وذاتيتها .

المبحث الثاني:

قدامة بن جعفر من سيرة الذات إلى مسيرة المذهب

نسعى في هذا المبحث إلى التعريف بقدامة بن جعفر ومنهجه النقدي، وسنتناول الموضوع من خلال مطلبين، أولهما نخصه للتعريف به، وثانيهما نبسط فيه نظريته النقدية.

المطلب الأول: التعريف بقدامة

هو قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، كان نصرانياً وأسلم على يد الخليفة العباسي (المستكفي بالله)، أخذ عن ابن قتيبة والمبرد وثلعب، واشتهر بالكتابة والحساب والمنطق والبلاغة، ونقد الشعر وله مصنوعات كثيرة، تولى الكتابة في ديوان ابن الفرات، وكتب لبني بويه، توفي سنة (337هـ) .

حيث الشعراء يتناشدون الأشعار، ويتناقدونها، وكان انتشار الأحزاب والفرق عاملاً آخر في نشاط الشعر والشعراء، كما دخل النقد طورا جديداً بظهور علوم العربية، فأصبحت مواد: النحو والصرف واللغة والعروض مقاييس يحكم بها على الشعر، فظهر تيار نقدي جديد يعتمد النحو أساساً له، مما جعل النحاة والنقاد والشعراء يشتبكون في معركة حامية الوطيس، عبر عنها عمار الكلبى بقوله⁷:

ماذا لقيت من المستعربين ومن قياس نحوهم هذا الذي ابتدعوا إن قلت قافية بكرة يكون لها معنى خلاف الذي قاسوا وما ذرعوا قالوا لحنن فذاك الحرف منتصب وذاك منخفوض وذاك مرتفع وحرشوا بين عبد الله واجتهدوا وبين زيد فطال الضرب والوجع فقلت واحدة فيها جوابكم وكثرة القول بالإيجاز تنقطع ما كل قولي مشروحا لكم فخذوا ما تفقهون وما لم تفقهوا فدعوا حتى أعود إلي قومي الذين غدوا بما غذيت به والرأي مجتمع إني غذيت بأرض لا تشب بها نار المجوس ولا تبني بها البيع لا يظأ الهر والخنزير تربتها لكن بها الرثم والرئبال والضبع وكان للرواة الحفظة دور بارز في ازدهار النقد اللغوي، كأبي عبيدة وأبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر وغيرهم، كما برز في تلك الفترة شعراء نقاد كبشار بن برد وغيره .

وكان سقوط الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية حدثاً جسيماً، نتج عنه تحول سياسي واجتماعي وثقافي... حيث احتكت الحضارة العربية بحضارات وثقافات أخرى، وترجم التراث اليوناني والهندي والفارسي، واتضحت المعارف اللغوية، وتقاربت النظريات، وبدأ التدوين في مجال النقد الأدبي. ولعل أول وثيقة تتناول

7 - عثمان بن جني، الخصائص، مرجع سابق، ص: 387.



فما هو الشعر إذا ؟
يعرف قدامة الشعر بأنه «قول،
موزون، مقفى، دال على معنى¹¹»
غير أن هذا الحد لا يميز جيد الشعر
من رديئه .

ولأن الشعر صناعة والغرض في كل
صناعة إجراء ما يصنع أو يعمل
بها على غاية التجويد والكمال، إذ
كان جميع ما يؤلف وما يصنع على
سبيل الصناعات والمهن له طرفان،
أحدهما غاية الجودة، والآخر غاية
الرداءة، وبينهما حدود تسمى
الوسائط¹²»

لذلك لم يكتف قدامة بتحديد عناصر
الشعر الأربعة (اللفظ، المعنى،
الوزن، القافية)، وبيان نعوتها
وعيوبها، بل جعل من تفاعل هذه
العناصر، وانسجامها المعيار الأسمى
للحكم بجودة الشعر أو رداءته .
وهكذا يعدد قدامة نعوت عناصر
الشعر وعيوبها، في مركباتها
ومفرداتها، بادئا باللفظ .

نعوت اللفظ، مفردا:

- سماحته
- سهولة مخارج حروفه
- أن يكون عليه رونق الفصاحة

عيوب اللفظ، مفردا:

- اللحن
- الجري على غير سبيل اللغة
- الحوشي
- المعازلة.

نعوت اللفظ مؤتلفا مع المعنى:

- المساواة
- الإدراف
- الإشارة
- التمثيل
- المجانسة
- الالتفات.
- عيوب اللفظ مؤتلفا مع المعنى:
- الإخلال

لقد صرح قدامة في مقدمة كتابه
«نقد الشعر» بأن ما دفعه إلى
التأليف في مجال النقد أنه لم يجد
من وضع كتابا في نقد الشعر،
وتخليص جيده من رديئه، وأنه «
رأى الناس يخطبون في ذلك منذ
تفقهوا في العلم وقليل ما يصيبون⁹»
ولما كان ذلك كذلك رأى أن يتكلم
في النقد بما يبلغ الوسع، وقدامة
هنا إنما يسعى إلى ما كان يسعى
إليه الجاحظ قبله، حين قال: «
طلبت علم الشعر عند الأصمعي،
فوجدته لا يعرف إلا غريبه، فرجعت
إلى الأخفش، فوجدته لا يعرف إلا
إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة
فأريته لا ينقد إلا ما اتصل بالأخبار،
وتعلق بالأنساب وأيام العرب¹⁰»
وهكذا عمل قدامة جاهدا على إيجاد
علم للنقد مستقل عن المادة التي
تعنى بالأخبار، والغريب، والنوادر،
وأيام العرب... كما عمل على
تجاوز الانطباعية والأحكام الذاتية،
المتناثرة، والمتعارضة أحيانا،
إلى نطاق آخر يقوم على تجانس
المفاهيم؛ وتناسق التصورات، ويحد
من شطط الأحكام وذاتيتها .

ولكى يتميز جيد الشعر من رديئه،
رأى قدامة أنه من الضروري تحديد
المادة التي يمكن أن يتناولها الحكم
بالجودة أو الرداءة، ولن يتم ذلك
إلا عن طريق الحد والتعريف الذي
يقوم على الجنس ثم الفصل ليصبح
التعريف جامعا، مانعا .

منها⁸:

- الخراج
- نقد الشعر
- صرف الهمة
- الرد على ابن المعتز
- جلاء الحزن
- درياق الفكر
- صناعة الجدل
- رسالة في ابن مقلّة
- نزهة القلوب
- كتاب السياسة
- جواهر الألفاظ.

أما عن الرجال الذين أخذ عنهم أو
تتلمذ عليهم، فمبلغ العلم بهم قليل،
فقد كان حريصا على إغفال الآخرين،
رواة، وغير رواة، حيث جرد كتابه «
نقد الشعر» من آراء الآخرين ليبقى
كتابته كتابا قداميا بمعنى الكلمة .

غير أن نظرة فاحصة لهذا الكتاب،
وعرضا تحليليا لهذه النظرية أمور
كفيلة باكتشاف المؤثرات والعوامل
التي التفت مجتمعة لتكون أساسا
لهذه النظرية.

ويمكن أن نحصر روافد نظرية قدامة
هذه فيما يلي:

- قواعد أفادها من العرب الذين
سبقوه
- قواعد أفادها من مصادر غير
عربية
- قواعد استنبطها بفكره الثاقب.

المطلب الثاني: المنهج النقدي لقدامة

8 - ابن النديم، الفهرست، ط1، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1348 هـ، ص 128 .

9 - قد الشعر لقدامة، مصدر سابق.

10 - السوقي، دار المعارف، القاهرة، 1961م، ص 223.

11 - قد الشعر، قدامة، مصدر سابق، ص: 86.

12 - المصدر نفسه، ص: 87.

خاتمة:

نستنتج مما سبق أن النقد الأدبي مر بمراحل، وأطوار قبل أن يستقل علما، أو فنا، قائما بذاته، من مرحلة التأثر والانطباع في العصر الجاهلي إلى بؤادر الوعي الموضوعي، في صدر الإسلام، إلى الظواهر الفنية في العهد الأموي، وصولا إلى عصر التدوين (العصر العباسي)، حيث استقل علما، له أدواته وأصوله، مع نظرية قدامة بن جعفر التي شكلت منعطفًا حاسما، نقل النقد من خاتمة الانطباع العابر إلى رحاب التقعيد المنطقي، والتحليل الهيكلي للنص الأدبي .

وعلى الرغم من ريادة قدامة العلمية، في نقل النقد الأدبي من الفطرة إلى المعيارية، إلا أن نظريته واجهت بعض الانتقاد، من ناحية وعلماء معاصرين له، ولحقين عليه، كالأمدي، والجرجاني، وابن رشيق القيرواني . ومن أبرز المآخذ التي أخذت على قدامة في نظريته: - الإغراق في المنهج العقلي، والمنطق الأرسطي - محاولة إخضاع الشعر - وهو ظاهرة فنية - لصرامة المنطق - الفصل التعسفي بين اللفظ والمعنى - رأيه في التشبيه الذي عده غرضا مستقلا بذاته - رأيه في الأغراض الشعرية التي يرجعها إلى حقل واحد (المدح). وبالجمل، يبقى قدامة المؤسس الأول للنقد الأدبي المعياري، وإن لم يسلم من النقد والانتقاد .

المصادر والمراجع:

- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تح: عبد المنعم خفاجي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1934م
- أبو الفتوح عثمان بن جني، الخصائص، ج2، ط1، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1952م
- ديوان حسان بن ثابت، تح: وليد الأعظمي، ط1، دار صادر، بيروت، 1974م
- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر، ج1، ط2، دار الجيل، بيروت، 1972م
- أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، ط1، مكتبة النهضة المصرية، 1964م
- القاضي الجرجاني، الوساطة، ط1، تح: عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1370م
- ابن النديم، الفهرست؛ ط1، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1348م
- الأمدي، الموازنة، ط1، دار المعارف، القاهرة، 2972م
- محمد مندور، الأدب وفنونه، ط2، الفجالة، القاهرة، 1963م
- الحافظ بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ط1، كلكتا، الهند، 1856م
- محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر، ط2، دار المدني، القاهرة، 1400م
- مجد الدين الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ط2، مطبعة بولاق، القاهرة، 1303هـ
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون، ج4، ط1، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1338م
- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ط2، مطبعة بولاق، القاهرة، 1285م .

- عكسه: وهو زيادة تفسد المعنى
- نعوت اللفظ مؤتلفا مع الوزن:
- تمام الألفاظ، واستقامتها
- مراعاة ترتيبها
- عدم الزيادة فيها، أو النقص منها
- عيوب اللفظ مؤتلفا مع الوزن:
- الحشو
- التثليم
- التذنيب
- التغيير
- المعاطلة .
- نعوت المعنى:
- صحة التقسيم
- صحة المقابلة
- صحة التفسير
- التتميم
- المبالغة
- التكافؤ
- صحة الالتفات .
- نعوت المعنى مؤتلفا مع الوزن:
- تمامه
- استيفاؤه
- صحته
- عيوب المعنى مؤتلفا مع الوزن:
- الإخلال
- المبالغة المفسدة للمعنى .
- نعوت الوزن، مفردا:
- سلامة العروض
- الترصيع .
- عيوب الوزن مفردا:
- الخروج عن العروض
- التخليع
- نعوت القافية، مفردة:
- غذوية الحروف
- سلامة المخرج .
- عيوب القافية مفردة:
- التجميع
- الإقواء
- الإطاء
- السناد .
- نعوت القافية مؤتلفة مع بقية البيت:
- تعلقها بما تقدم من معنى البيت
- الترشيح
- الإيغال
- عيوب القافية مؤتلفة مع بقية البيت:
- استدعاؤها، وتكلفها
- تعتمد السجع من غير فائدة المعنى.



من المعنى إلى القصد (مقترح إبول غرايس (Pole Grice))

الاستدلالي في التواصل و تجاوز المدخل السيميوطيقي

«لقد قررنا أن المعنى – بما يثيره من قضايا – يمثل سؤالاً فلسفياً ومشغلاً لسانياً مهماً كان ولا يزال مثار خلاف بين فلاسفة اللغة والمناطق اللسانيين اقترنت إلى مركزه شبكة من مفاهيم وتصورات تمت إليه بسبب مكن تكاد تشتق منه أو تلحق به أو تنتظم في عقده كالقصد والقصدية والفهم والإدراك والتأويل» عبد السلام عيساوي، قضايا المعنى في التفكير اللساني والفلسفي (التقديم)، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، جامعة منوبة، ط 1، 2015م، ص:7.

ملخص

يسعى هذا المقال إلى تقديم تصور أحد أهم الفلاسفة المعاصرين لقضية المعنى بين القول والمقول، وهي إحدى قضايا البحث الإشكالية التي كانت ملتقى علوم شتى، من أبرزها اللسانيات، والمنطق، والفلسفة؛ إذ يبدو المعنى في قلب الاهتمام الفلسفي في القرن العشرين، فقد غدا عند بعضهم ماهية الفلسفة وقضيتها الأولى. ولعل بول غرايس (1913 – 1988م) أحد أكثر الفلاسفة اهتماماً بالمعنى، وتطويراً لمباحثه، حتى سماه بعضهم «فيلسوف المعنى»¹ الذي كان الجانب الأبرز في فلسفته، والدافع لكثير من تصوراته، حيث يصفه هو نفسه هذا الجانب من فلسفته قائلاً: «لقد سبب لي كثيراً من القلق، وأحدث أيضاً توقداً أكثر من أي جانب آخر»². نروم مسالة المنطلقات النظرية

التي مثلت أهم تحول من مقاربة المعنى مقاربة دلالية تروم البحث في قضايا الدلالة إلى مقاربة استدلالية تتجاوز الدوال إلى المقاصد، وتحاول اجترار نظريتين فرعيتين تسيجان قوانين المحادثة والتواصل؛ ضماناً لمبدأ المناسبة، من منطلق أن المتكلم قد يقول كلاماً ويقصد غيره، كما أن المستمع قد يسمع كلاماً ويفهم غيره؛ أي العبور من معنى صريح إلى معنى مستلزم أو مضمن، كما حضرت في أعمال هربرت بول غرايس.

معنى الجملة والمعنى لدى المتكلم

كشف الفيلسوف الإبريطاني بول غرايس عن المفاهيم الأساسية لنظريته في التلويح/الاستلزام الحواري (Conversational implicatures) في سلسلة

محاضرات شهيرة بعنوان (محاضرات وليم جيمس) ألقاها غرايس في جامعة هارفرد عام 1967، ثم نشر بعدها سلسلة مقالات من أهمها مقالته التأسيسية المعنون ب المنطق والمحاورة (Logic and conversation المنشور³ 1975 . وقد كان غرايس في مختلف أعماله من دعاة المقترح الاستدلالي (Inferntial)⁴، باعتباره بديلاً حديثاً للمدخل السيميوطيقي؛ فأسس نظرية للاستدلالات التي يتبعها المتلقي قصد الاستيعاب الكامل لمرامي المتكلم أو الكاتب من وراء النطق بالقولة⁵ «متجاوزاً الكلام المنطوق أو (الماقيل)⁶ what is said (المعنى الحرفي الوضعي) إلى المعنى الملوّح به what is implicated أي التلويح أو التعريض implicature»⁷. وقد كانت مقالة غرايس 1975 نقطة انطلاق للعديد من التيارات في

1 - صلاح إساعيل، «حواليات الآداب والعلوم الاجتماعية»، جامعة الكويت، النظرية النقدية في المعنى عند جرايس، 2005، 15.

2 - Pole Grice, studies-in the way of words, fourth printing (Cambridge Massachusettes: Harvard University Press, 1995), 339.

3 - H. P. Grice, «Logic and conversation», Speech arts, Syntax and semantics 3 (1975): 41-58.

4 - يعد الاستدلال أحد الأشكال الأساسية للتفكير المنطقي، وهو أي الاستدلال يشمل الاستنباط، والاستقراء، والقياس، والزموم، والافتراض المسبق، المزيد من التفصيل ينظر: إن هوانغ، معجم أوكسفورد للتداولية، ط 1، ترجمة هشام إبراهيم عبد الله الخليفة (دار الكتاب الجديد المتحدة، 2020)، 356.

5 - القولة: قطعة معينة من اللغة سواء أكانت كلمة أم عبارة أم جملة أم سلسلة من الجمل منطوقة أو مكتوبة من قبل معين في سياق معين في مناسبة معينة، أي هي عينة من الاستعمال اللغوي المسبق والمكيف بصورة جزئية ثقافياً، و/ أو اجتماعياً، وهي تشكل حصول سلوك لغوي من جانب المتكلم، ينظر: المرجع السابق، 664.

6 - «الماقيل» ابتدعها هشام عبد الله الخليفة ترجمة ل (what is said) عوض القول، التي كان قد ترجمها بها من قبل، معلاً عدوله إلى دقتها في الدلالة على المتصور والفهم، و وجود نظائر لها مثل الما صدق، ينظر: هشام إبراهيم عبد الله الخليفة، نظرية التلويح الحوارية بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي الإسلامي، ط 1 (الشركة المصرية العالمية للنشر والتوزيع، 2013)، 19.

7 - المرجع السابق، 15.

مجال دراسة المعنى والتواصل، كما اتخذها هو نفسه أساساً لنظرية في المعنى، حيث قابل بين معنى المتكلم (Speaker's meaning) أي معنى القول/ المعنى السياقي، ومعنى الجملة (Sentence meaning) أي جوانب المعنى التي تنسب إلى الجملة مجردة من سياقات الاستعمال (التمثيل الدلالي والصورة المنطقية) ومعنى الكلمة (Word meaning)، وذلك محاولة منه للتمييز بين مستويات مختلفة لما أسماه المعنى غير الطبيعي (Nonnatural meaning) (مستوى المعنى غير الزماني، مستوى المعنى غير الزماني التطبيقي، ومعنى القول في مناسبة معينة) كما يضيف غرايس نوعاً رابعاً من المعنى يسميه معنى المتكلم في مناسبة معينة (Utterer's occasion meaning)⁸.

وكان إغرايس في تفريقه بين معنى الجملة والمعنى لدى المتكلم محاوراً تصور إفريجة الذي يرى أن تفسير معنى الجملة المتمثل في امتلاك شروط الصدق، يأتي في المقام الأول، ثم يأتي تفسير المعنى لدى المتكلم بعد ذلك؛ وهي الطريقة التي عدها إغرايس قلباً للأمر رأساً على عقب؛ ليقترح الخطأ ذاتها لكن وفق مسار عكسي يرى تفسير معنى الجملة منبثقاً من المعنى لدى المتكلم.

وفضلاً عن جعل معنى المتكلم مركز الاهتمام، وموجه الدلالة، يترتب على التفريق بين المعاني معرفة القصد والدلالة، ففي الأنواع الثلاثة الأولى من المعنى يكون المقصود من المعنى هو المعاني المختلفة للكلام الذي قيل، سواء حسب معناه الوضعي المعجمي، أم حسب

معناه الكنائي الاصطلاحي الملحق بالمعنى الدلالي الوضعي، ولكن لا يلزم من هذه المعاني بالضرورة أن المتكلم قد عني بالفعل المعنى الذي استعمل فيه الكلام وقصده؛ حيث إن المتكلم قد يكون ساخراً، أو هازلاً، أو ناقلاً لكلام آخرين...

وما يهمنا هنا من آراء غرايس ما قدمه من تفسير لإشكال عويص شغل اللغويين قبله، وهو: كيف يتسنى لنا أن نعني أكثر مما نقول فعلاً؟ أي أكثر مما نعبر عنه حرفياً بالمعنى التقليدي المتعارف عليه للتعبير اللغوية المنطوقة، أي الانتقال مما قيل إلى ما قصد، وهي ثغرة لم تستطع الدلالة سدها، ولا تقديم تفسير لها.

المبدأ التعاوني (Co-operative principle)

كان المبدأ الذي طرحه غرايس لتجاوز الإشكال (إشكال قصور الدلالة عن المقاصد)، وتفسير ظاهرة التلويح في التواصل هو ما أسماه مبدأ التعاون (Co-operative principle)⁹ الذي يحدد الطريقة التي تستعمل فيها اللغة بأعلى مستوى من الكفاءة والفاعلية؛ فينص على جعل الاسهام الحواري، حين الإدلاء به مناسباً للاتجاه والغاية المتوخاة من المحادثة التي يشارك فيها¹⁰.

ويغطي هذا المبدأ أربعة مجالات مقولية¹¹ (Categories) رئيسية هي: الصلة (Relation)، والكمية (Quantity)، والأسلوب (Manner). أولاً: قاعدة الصلة أو المناسبة (Maxim of relation) ويتوقع - بمقتضاها - من المتكلم ألا يقول ما

ليس بذى صلة أو مناسبة؛ حيث ينطلق من المبدأ «ليكن كلامك مناسباً أو ذا صلة بموضوع الحديث» ثانياً: قاعدة النوعية (Maxim of Quality) ويتوقع - انسجاماً معها - أن يقول المتكلم أقوى قول تسوغه الأدلة المتوافرة عنده؛ لذا تقوم على مبدئين:

لا تقل ما تعتقد أنه غير صادق.

لا تقل ما ليس عندك دليل كاف على صدقه.

ثالثاً: قاعدة الكمية (Maxim of Quantity) ويتوقع من المتكلم باحترامها أن يتجنب الحشو، حيث تقوم على مبدئين:

أ) اجعل اسهامك في المحادثة مفيداً بالمعلومات بالقدر المطلوب (بالنسبة للأغراض الحالية في المحادثة)

ب) لا تجعل إسهامك بالمعلومات أكثر مما هو مطلوب.

رابعاً: قاعدة الأسلوب (Maxim of Manner) أو قاعدة الوضوح (Maxim of Clarity) ويطلب بمقتضاها من المتكلم أن يكون واضحاً؛ لذا تؤسس على أربعة مبادئ:

تجنب غموض العبارة.

تجنب اللبس.

تكلم بإيجاز.

ليكن كلامك مرتباً بالتسلسل.

هذه القواعد ليست اعتباطية، وإنما هي وسائل عقلانية للتعاون في إيصال رسالة ما، وهي لا تمثل وصفاً دقيقاً لواقع حال المحاورات اليومية؛ لأن موقف المتخاطبين من القواعد مختلف بين من يطيع القواعد ويتقيد بها (Observing) ومن لا يطيعها ولا يتقيد بها (Non-)

8 - هشام عبد الله الخليفة، نظرية التلويح الحواري بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي الإسلامي، ط 1 (بيروت / لبنان: الشركة المصرية العالمية للنشر، 2013)، 23.

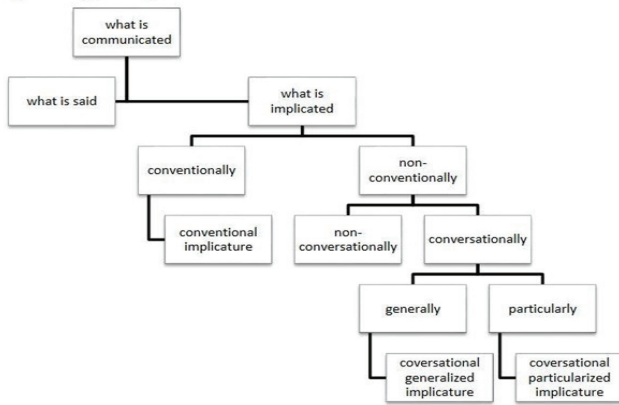
9 - 45، H. P. Grice، «Logic and conversation».

10 - المرجع السابق.

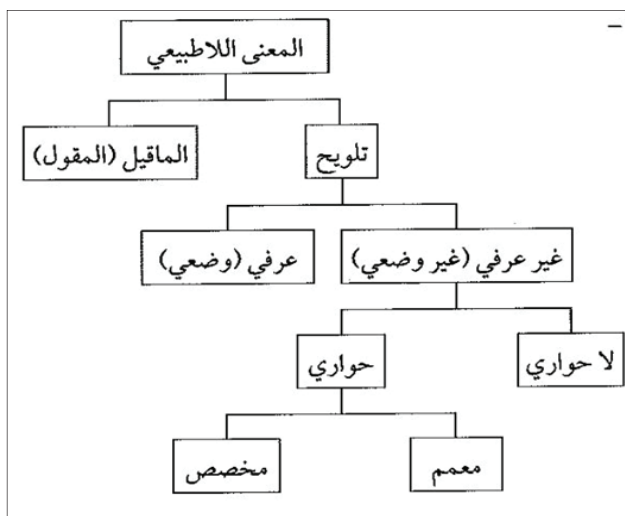
11 - ينظر: المرجع السابق، 46.

يولد تلويحا مفاده أن الشيء المذكور ليس قريب الصلة بالمتكلم.
أما التلويح المخصص فمثاله:
[3] الكلب يبدو مسرورا.
[4] ربما يكون الكلب قد أكل اللحم.
يولد النطق ب [3] التلويح في [4] إذا ورد في السياق الخاص المحدد الذي تعبر عنه [5]
[5] أ) ما الذي حصل للحم المشوي؟
ب) الكلب يبدو مسرورا.
ولأن المقام يضيق عن الإفاضة في ذكر مختلف سياقات المعنى، وأشكال التلويح، كما عرضها غرايس، نكتفي بإيراد مشجر يلخص أنواع التلويح¹⁵:

Figure 3-1 Types of implicatures



المعنى وأنواع التلويح عند غرايس



(observance) ويأخذ ذلك عدة أشكال¹²:
مخالفة القواعد (Violating)
خرق القواعد بسبب عدم القدرة على إطاعتها (Infringing)
رفض إطاعة القواعد علنا (Opting out)
تعليق القواعد (Dudpending)
الاستخفاف بالقواعد واستغلالها (Flouting and exploiting)
وإذا كان احترام هذه المبادئ يفضي إلى ضمان تواصل ناجح، وتأويل مناسب، فإن تجاوزها أو خرق بعضها ليس متكافئا في الانتقال من معنى الجملة إلى معنى المتكلم، أو من حدود الدلالة إلى أفق التداوليات، وتفعيل مسار استدلالي يتجاوز المقرب السيميوطيقي النصي؛ فيبدو أن هذه الأشكال تتفاوت من حيث الأهمية، ولعل الأخير منها هو الأكثر أهمية في مضمار توليد تلويح حوار، لأنها حالة عدم تقييد مقصودة لغرض الإيحاء بتلويح متعمد، فالمرسل لا يضل المتلقي، وليس عاجزا عن إطاعة القواعد، وإنما يريد من المتلقي إدراك أبعاد خرق تلك القواعد.

التلويح الحواري (Conversational implicature)

التلويح الحواري أو التلويح هو «ما يعنيه المتكلم مما يتعدى ما قاله بالضبط»¹³ ويغطي حالات متنوعة من تجاوز المعنى الحرفي في اللغة العربية، إذ يشمل التعريض، والمجاز المركب المرسل والتمثيلي، والدلالة بالمفهوم، وفي إطار تحليله للتلويح الحواري ميز غرايس بين نوعين منه¹⁴، هما: تلويح حوارى معمم (Generalized Conversational implicature) وتلويح حوارى مخصص (Particularized Conversational implicature) من ناحية علاقة التلويح بالسياق، حيث يستدعي التلويح المخصص سياقاً (أو سيناريو) خاصاً ومحدداً، لكي يتم التوصل إليه؛ لأنه يتعلق بمناسبة خاصة (Particular occasion) عكس التلويح المعمم الذي لا يحتاج مثل هذا السياق الخاص.

ويتضح الفرق بين التلويحين من خلال التمثيل عليهما:

- [1] دخلت في بيت.
 - [2] البيت لم يكن بيتي أنا.
- فالتلويح الحوارى المعمم هنا مرتبط بتنكير كلمة «بيت» في [1] حيث إن تنكير الاسم - في المعتاد -

12 - هشام إبراهيم عبد الله الخليفة، نظرية التلويح الحوارى بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربى الإسلامى، 30.

13 - يان هوانج، معجم أوكسفورد للتداولية، 343.

14 - H. P. Grice, «Logic and conversation», 56 - 14.

15 - الشكل مقتبس من: 111، «Cristina Grisot, «Temporal Reference: Empirical and Theoretical Perspectives. Converging Evidence from English and Romance».

التدرجي، أو التقهقري، كما قد يكون «من الصنف الإظهارى، إذا ذكرت جميع الصور المنطقية التي تدخل في بنائه، أو من الصنف الإضماري إذا طويت بعض هذه الصور، واحتيج إلى ذكرها لتمام بنيته الاستدلالية»²⁰

شروط التداول اللغوي:

النطقية: حيث لا يكون المحاور ناطقا حقيقيا إلا إذا تكلم لسانا طبيعيا معيناً، وحصل تحصيلا كافيا صيغه الصرفية، وقواعده النحوية، وأوجه دلالاته وألفاظه، وأساليبه في التبليغ والتعبير. إضافة إلى أن هناك شروطاً أخرى ترتبط بطبيعة المنطوق نفسه:

– عدم انفكاك الصورة اللفظية عن مضامينها، هذه المضامين التي يكون تأثيرها في المخاطب أعمق، كلما كانت صلتها بالمعتقدات والمقاصد ألصق.

– تعدد الوظائف وتداخل المستويات تتزاوج فيه الأقوال، ويتمازج فيه الاعتقاد بالانتقاد.

– التوجيه توجيهها علمياً، تتداخل فيه الوقائع مع القيم، والمعطى مع المبني، والمبني مع المعنى.

– كونه مفتوحاً فتحاً مستمراً، تبني موضوعاته تدريجياً، حيث تنقلب الموضوعات في أحوال دلالية متعددة، انتقالاتاً من الإجمال إلى التفصيل، ومن الإشكال إلى التبيين، ومن الخفاء إلى الظهور.

والخطاب تتلون أساليبه، وتتشابك دلالاته، وتتقاطع تعابيره؛ فتتولد صيغ تعبيرية شتى منها المركب، والبسيط، والتصريحي، والمكني، والخبري، والانشائي، «ومن ثم فإن الخطاب قابل للجمع بين ما هو ظاهر صريح، وما هو باطني وضمني، وما

بغض النظر عن مستويات وضوحها أو غموضها الذي ينبغي أن يظل في دائرة الممكن فهمه؛ بحيث يحتوي على قرائن تعاقدية التزامية بين طرفي الخطاب، تشكل سياقاً مشتركاً بينهما.

اقتضاء الالتزام: والمقصود به هو مراعاة البناء التطوري للخطاب، بالتمسك مساهمة الخطوط التي يقطعها الحوار في تشابكها وتقاطعها، في اتئافها واختلافها، مع «المحافظة والالتزام في الوقت نفسه بإواليه التشابك والتقاطع والتباين والاختلاف، استقراء واستنباط، إظهاراً وإضماراً»¹⁸

الملاحظة الداخلية:

يشكل مبدأ التعاون والقواعد المتفرعة عنه العمود الفقري للنظرة الاستدلالية، لذا تكتننه مسألتان، إحداهما التحوار (Conversation) أي الفعاليات الحوارية، حيث تفيد كل فعالية حوارية القيام بمجموعتين متميزتين من الشروط يمكن تلخيصها في: شروط النص الاستدلالي، وشروط التداول اللغوي¹⁹ شروط النص الاستدلالي:

النصية: كل نص يتركب من عدد من الجمل السليمة مرتبطة فيما بينها بعدد من العلاقات، سواء كان الربط ربطاً مثنوياً، أو جمعياً، أو مباشراً. الاقتترانية: وهو ما كانت فيه عناصر النص مرتبطة فيما بينها ارتباطاً انسجاماً وتكاملاً.

الاستدلالية: وهو ما كانت عناصره مقترنة بعلاقات استدلالية، وهي تلك العلاقات التي تسود النص من صور منطقية، أو تدرج القضايا من المقدمات إلى النتائج، أو تقهقرها من النتيجة إلى المقدمات؛ لذا قد يكون النص الاستدلالي من الصنف

ويبدو أن نظرية التلويح الحوارية تقوم على مبدأ التعاون العام والقواعد المتفرعة عنه، والتي يمكن حصرها - تبعا للدكتور العياشي أدراوي - في ملاحظتين أساسيتين: خارجية وداخلية¹⁶

الملاحظة الخارجية:

وترتكز على رصد العناصر الخارجية لمبدأ التعاون، وتشكل من الاقتضاءات التالية: الاقتضاء الكمي: وينعكس في مراعاة «المقدار» المطلوب في الحوار، ولعل دوره في مبدأ التعاون يعود إلى: – الاعتبار الخطابي: في اللغة المستعملة، وهو لا يتحدد في كم معين من الألفاظ أو التراكيب.

– درجة الوضوح أو الشفافية: حيث يظل التواصل محتاجاً إلى مزيد إضافة كلما كانت درجة الوضوح أو الشفافية أقل، بينما يكون الإيجاز مطلوباً كلما كانت دوال الخطاب كافية في كشف مضامينه بوضوح. اقتضاء الوسيلة: ويستلزم التمسك بالوسيلة اللغوية في كل المجالات التي تحتل فيه دلالات الألفاظ، ومستلزمات العبارة، واستخداماتها البلاغية والمقامية.

اقتضاء الغاية: حيث يمثل المعطى الغائي في أي تواصل ضرورة مركزية لا غنى عنها، ذلك أنه «هو الذي يخطط الإوالية البيانية في مرتفعاتها ومنحدراتها، وفي استنقاعاتها ومنعرجاتها، وكأن الخطاب اللغوي مسار تسود فيه هذه التضاريس، بدءاً وانتهاءً، افتتاحاً واختتاماً»¹⁷ ولأن مبدأ الاستلزام الحوارية يقوم على التعاون، اقتضى ذلك تجنب كل عبث لغوي لا يراعي اقتضاء الغاية التواصلية.

اقتضاء القصديّة: التي هي بمثابة «قوة الدفع» للخطاب اللغوي،

16 - العياشي أدراوي، الاستلزام الحوارية في التداول اللساني من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، ط1 (الرباط: دار الأمان، 2011)، 105.

17 - المرجع السابق.

18 - العياشي أدراوي، الاستلزام الحوارية في التداول اللساني من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، ط1 (الرباط: دار الأمان، 2011)، 106.

19 - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار - تجديد علم الكلام، ط2 (الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، 2000)، 35.

20 - المرجع السابق، 36.

بالألفاظ، عكس التلويح العرفي الذي يتسم بعدم الانفكاك بين ألفاظه؛ مما يعني أن التلويح الحوارية يتعلق بالمحتوى الدلالي وليس بالجانب الشكلي للجملة، ويمكن أن نمثل لذلك بالتلويح التهكمي [9] المتولد من القولة [10]

[9] نقاش الأطروحة التي أودعت قبل عامين سابق لوقته!
[10] نقاش الأطروحة متأخر!

فلو استبدلنا كلمة «سابق» ب «جاء قبل» أو استبدلنا كلمة «وقته» ب «إبان» أو «حينه» أو بأية لفظة مرادفة للفظة المستبدلة لما أثر ذلك على التلويح التهكمي.

إمكانية حسابه (Calculability): فبواسطة خطوات استنتاجية يمكن حساب التلويح الحوارية، حيث يحتاج المتلقي في عملية الاستدلال إلى:

– معرفة المعنى الوضعي للألفاظ المستعملة في التواصل، وتشخيص المشار إليه،

– الأخذ بمبدأ التعاون والقواعد المنبثقة عنه،

– مراعاة السياق المقامي والمقال للقولة،

– معلومات خلفية أو موسوعية أخرى،

– اشتراك المعلومات الأنفة الذكر بين المرسل والمتلقي.

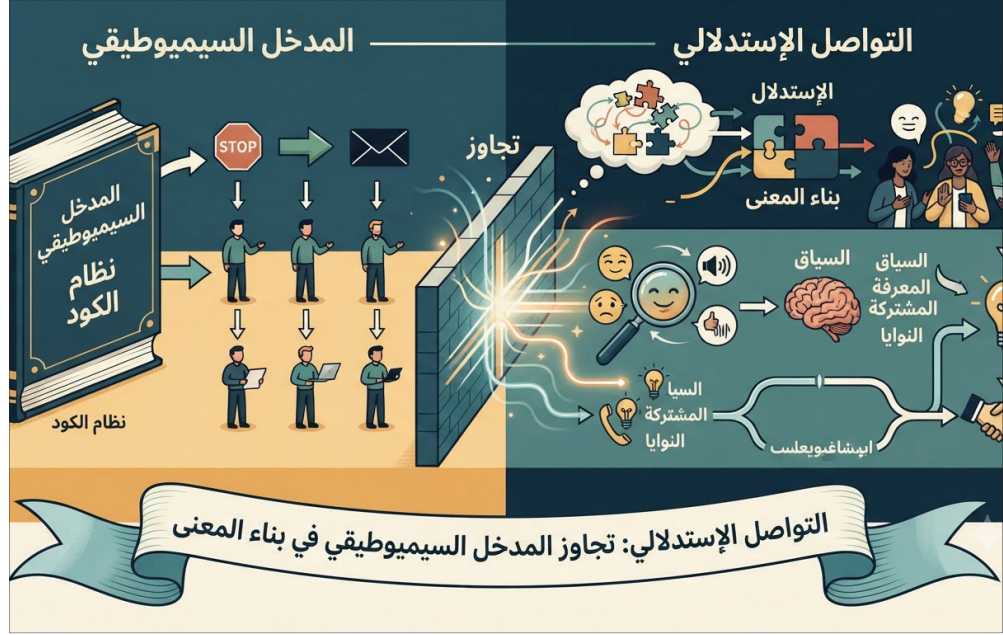
ويمكن تلخيص خطوات الاستدلال في²⁴:

لقد نطق (م) ب (ق).

لا يوجد ما يجعلني أعتقد أن (م) لا يتقيد بالقواعد، أو في الأقل مبدأ التعاون الحوارية.

لكي يقول (م) ب (ق) ويكون ملتزما بالقواعد أو مبدأ التعاون الحوارية، يتوجب على (م) أن يعتقد أن (ك):

لا بد أن (م) يعلم أن من المعلومات المتبادلة وجوب افتراض (ك) إذا أراد



ويمكن أن نمثل لها بالتلويح النمطي المعمم [6] المتولد من مراعاة قاعدة الكمية في القولة [7]:

[6] الأطروحة تناقش غدا.

[7] الأطروحة تناقش غدا تحديدا.

لكن هذا التلويح يمكن تعليقه في جملة الشرط [7]، كما يمكن إلغاؤه بإضافة عبارة، كما في [8]:

[7] الأطروحة تناقش غدا، إن لم تناقش اليوم.

[8] الأطروحة تناقش غدا، بل لن تناقش هذا الموسم.

وواضح انعكاس هذا التلويح على زمن نقاش الأطروحة؛ حيث تتأرجح بين المستقبل المحدد بالظرف الزمني «غدا» وبين الحاضر الموسوم ب «اليوم» في التلويح الحوارية الأصل (5، و6) وبين تعليق إحالة المستقبل في التركيب الشرطي (7) وإلغاؤه كلياً بالاستدراك في البنية (8).

ولعل ميزة التعليق والإلغاء حاسمة في التمييز بين التلويح واللزوم (Entailment) أو الاستنباط (Deduction) فالتلويح في هذا أقرب إلى الاستقراء (Induction) منه إلى الاستنباط، إذ إن الاستقراء قابل للنسخ والتحويل بخلاف الاستنباط²³

عدم إمكانية الفصل بتغيير الألفاظ (Non-detachable) حيث إن التلويح الحوارية غير لصيق

هو محكم وما هو منشابه، وما هو عام وما هو خاص...²¹

الاجتماعية: يتوجه المحاور إلى غيره مطالعا إياه على ما يعتقد ويعرف، ومطالباً له بمشاركته اعتقاداته ومعارفه، وهو ما يعكس البعد الاجتماعي في «الحوارية» حيث تقوم على التعاون مع الآخر في طلب الحلول، وتحصيل المعارف، واتخاذ القرارات؛ وعليه فإن الجانب الاجتماعي في كل تواصل يبقى الحدث الأساس، الذي تسيّر وفقه طرق الحجاج والاستدلال والاستنباط والتأويل²²

الاقناعية: وهو شرط غير ضروري مالم يكن الخطاب ذا طابع منطقي صرف، وكان من أهدافه التأثير على المتلقي بالإقناع.

الصفات المميزة للتلويح الحوارية:

هناك صفات عديدة مميزة للتلويح الحوارية عن التلويح العرفي واللزوم المنطقي، ومن أهم تلك الصفات: إمكانية التعليق، أو الإلغاء أو الإبطال (Defeasibility) وتعني إمكانية إلغاء التلويح وإزالته بإضافة عبارة أو تركيب، أو فكرة إلى الجملة الأصلية، دون الوقوع في تناقض، مما يعني أن البناء الدلالي والاستدلالي يبني أثناء التواصل، وليس موجوداً قبل.

21 - العياشي أدراوي، الاستدلال الحوارية في التداول اللساني من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، 108.

22 - بنظر: العياشي أدراوي، الاستدلال الحوارية في التداول اللساني من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، 109.

23 - هشام إبراهيم عبد الله الخليفة، نظرية التلويح الحوارية بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي الإسلامي، 39.

24 - المرجع السابق، 42.

كما أن: قاعدة الكمية (Maxim of Quantity) التي تقوم على مبدئين أساسيين هما:

أ) اجعل إسهامك في المحاور مفيدا بالمعلومات قدر المطلوب (بالنسبة للأغراض الحالية في المحاور).
ب) لا تجعل إسهامك بالمعلومات أكثر مما هو مطلوب.

تقضي؛ أي قاعدة الكمية أن يكون «إسقاط محمد الكأس» له علاقة بـ «انكسارها» ومن ثم فحدث الإسقاط سابق زمنيا على حدث الانكسار، ولو استثمرنا - هنا - مفهوم المطاوعة كما في تصور الصرف العربي، لكان ذلك مناسبا في نظري.

وفي الاتجاه ذاته يتم تأويل المثال [14] الذي يغيب فيه الرابط المنطقي (حرف العطف) لكن: قاعدة الصلة أو المناسبة (Maxim of relation) التي تنص على القول «ليكن كلامك مناسبا أو ذا صلة بموضوع الحديث» تعوض غياب الرابط بافتراض الصلة بين الحدثين؛ وانطلاقا من العلاقة السببية يتم تنظيم الأحداث على المسار الزمني؛ بحيث يكون حدث السقوط سابقا على حدث الانكسار. ووفق قاعدتي الأسلوب والمناسبة الأنفتين يؤل المثالان [15] و [16] بحيث يكون حدث المغادرة سابقا على حدث الغضب، انطلاقا من مبدأ الترتيب التسلسلي للأحداث، وافترض علاقة بين الحدثين تلزم بإخضاعهما لتراتبية زمنية تتسق مع منطلقات «مبدأ التعاون» ما لم يكن هناك إكراه سياقي يستدعي التأويل من منظور «التلويح الحوارية».

هذا مع أن تأويل البنيات التركيبية التي ورد فيها حرف العطف مثيرا للصورة المنطقية - بناء على ما يستفاد من سياق القول - في دلالاته على السببية أو الترتيب - كما في الأمثلة المقدمة - يعتبر تلويحا حواريا معمما (Generalized)

I took out the key and (opened the door)

[13] أسقط محمد الكأس، وانكسرت John dropped the glass and (it broke)

[14] أسقط محمد الكأس. انكسرت. John dropped the glass. It (broke)

[15] غادر بطرس، وغضبت مريم. Peter left and Mary got (angry)

[16] غادر بطرس. غضبت مريم. (Peter left. Mary got angry)

فاستثمار الأبعاد التداولية التي تتجاوز المستوى اللغوي إلى المواقف والممارسات في العالم الواقعي يسهم إسهاما مهما في التأويل الزمني الأنسب، فمعلوم من الممارسات أن فعل الإلقاء والتوقيع الموسيقي المصاحب له متزامنان؛ مما يوجه لقراءة تواقفية في المثال [7] وهو موافق لما يفيد الرابط المنطقي (حرف العطف الواو) الذي يصل الحدثين بعضهما ببعض.

بينما يكون التأويل الأنسب في المثال [8] تأويلا يفيد أسبقية حدث إخراج المفاتيح زمنيا على فتح الباب؛ استثمارا لعلاقة الترتيب التسلسلي، وهي علاقة غير مستفادة من دلالة الرابط، لكن: قاعدة الأسلوب (Maxim of Manner) - كما صيغت في المقترح لغراسي - قادرة على حل الإشكال انطلاقا من مبدئها الرابع الذي ينص قائلا «ليكن كلامك مرتبا بالتسلسل» وهو ما يقتضي أسبقية الحدث الأول في الورد نصيا، أسبقيته زمنيا، ما لم يكن هناك إكراه سياقي.

ووفق المبدأ ذاته يؤل المثال [9] حيث يبقى على الأصل وهو تأويل الأحداث زمنيا، وفق ورودها التسلسلي؛ لذا يكون انكسار الكأس لاحقا لسقوطها، وليس سابقا له،

(م) أن يبدو متعاوننا. لم يفعل (م) أي شيء يمنعي أنا المستمع من الاعتقاد ب (ك) إذن فإن (م) يريد أن أعتقد ب (ك)، وبمنطقه ب (ق) فإنه قد لوح ب (ك). عدم العرفية أو الوضعية (Non-conventionality): التلويح الحوارية ليس وضعيا، أي ليس جزءا من المعنى الوضعي للألفاظ. ويمكن للقولة أن تكون صادقة في حين أن ما تلوح به كاذب، كما يمكن العكس.

عدم التعيين: التلويح الحوارية للقولة يختلف من سياق إلى آخر، وحتى ضمن السياق الواحد، حيث السياق ليس أمرا قريبا بل يتم بناؤه أثناء سيرورة الاستدلال المفضية إلى فحوى التلويح.

من الدلالة إلى توجيه التأويل وفق مقاصد الخطاب (الإحالة الزمنية نموذجاً):

استثمرت نتائج مبدأ التعاون، واقتضات التلويح الحوارية في تحليل بعض قضايا الإحالة الزمنية في اللغات الطبيعية، حيث يتكفل مبدأ التعاون انطلاقا من قواعده المشكلة له، بتأويل الإحالة الزمنية في الخطاب التواصلية الذي يحترم المواضع، كما في [11]، بينما يحتاج في البنيات التي تعلق أو تلغي قواعد مبدأ التعاون، أو إحداها إلى استثمار مبدأ التلويح الحوارية، سواء كان المسار الاستدلالي بسيطا، كما في [12] أو يحتاج لإعمال النظر، والاستعانة ببعض صفات التلويح الحوارية المميزة له، كما في الأمثلة من [13] حتى [16]²⁵

[11] كان الشاعر ينشد نصه وعزف العود يسايره.
[12] أخرجت المفتاح، وفتحت الباب.

25 - الأمثلة مقتبسة - مع تعديل بسيط - من: Cristina Grisot, «Temporal Reference: Empirical and Theoretical Perspectives Converging Evidence from English and Romance», 112

خاتما

يتضح مما تقدم أن بول إغرايس أسهم في تدقيق مفهوم المعنى في حدود سيادة القصد والاعتقاد؛ مما يمكن معه وسم نظريته بالنظرية القصدية؛ حيث استطاع أن يجترح مبدأ التعاون إطاراً تحليلياً للتواصل العادي، مكملاً تحليل الجوانب المنازحة عن الدلالة الوضعية بتشديد أسس التلويح الحوارية؛ مما قاد إلى تدشين دراسات مهمة كانت منطلق البحث التداولي في المعنى، فضلاً عن جملة من المفاهيم المؤسسة الحاضرة إلى اليوم في تحليل ضروب الخطاب، ودراسة العمل اللغوي المباشر وغير المباشر. وهي مفاهيم ستعرف مراجعات قائمة على أعمال محاورة لنظرية بول إغرايس، منها: قوانين الخطاب (Lois de discours) مع ديكرود (Ducrot)، ونظرية الصلة أو المناسبة (Théorie de la Pertinence) مع دان سبربر وديري ولسون (Welson D et Sperbre D) كما لا يخفى أن هذه المفاهيم – وإن لم يعبر عنها بالذخيرة المصطلحية ذاتها – كانت حاضرة في التراث العربي، خصوصاً المدونة الأصولية؛ مما يمكن معه القول بريادتها في المنحى الاستدلالي، وإن بدت مدونة بول إغرايس أكثر تماسكاً منهجياً.

مصادر المقال ومراجعته

العياشي أدراوي. الاستلزام الحوارية في التداول اللساني من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها. ط1. دار الأمان، 2011.

صلاح إسماعيل. «حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت». النظرية القصدية في المعنى عند جرايس، 2005.

طه عبد الرحمن. في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. ط2. المركز الثقافي العربي، 2000.

عبد السلام عيساوي، قضايا المعنى في التفكير اللساني والفلسفي (التقديم)، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، جامعة منوبة، ط1، 2015.

هشام إبراهيم عبد الله الخليفة. نظرية التلويح الحوارية بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي الإسلامي. ط1. الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان، 2013.

يان هوانغ. معجم أوكسفورد للتداولية. ط1. ترجمة هشام إبراهيم عبد الله الخليفة. دار الكتاب الجديد المتحدة، 2020.

Cristina Grisot. «Temporal Reference: Empirical and Theoretical Perspectives. Converging Evidence from English and Romance. Pdf». Thèse de doctorat, Université de Genève, 2015.

H. P. Grice. «Logic and conversation». Speech arts, Syntax and semantics, عدد 3 (1975): 41-58.

Pole Grice. studies-in the way of words. Fourth printing. Cambridge Massachussetes: Harvard University Press, 1995

(Conversational implicature) لذا لا يحتاج في تأويله إلى البحث في السياقات المقامية الخاصة، والسيناريوهات التواصلية المشفرة، لأنه لا يتعلق بمناسبة خاصة (Particular occasion) فلا يحتاج مثل هذا السياق الخاص. انطلاقاً من هذا التصور يتبين أن النظر في البنية الزمنية في مثل هذه الاستعمالات ينبغي أن يكون نظراً تأويلياً يراعي أن جوانب منها – كما تقول كريستينا كريستوت – محددة تداولياً بما قيل (what is said)، ومن ثم يتم ترميزها بواسطة الدوال اللسانية، بيد أن هناك جوانب أخرى لم يتم ترميزها لغوياً؛ مما يستدعي تجاوز ما قيل إلى ما ضُمّن²⁶. وتقدم كريستوت مثلاً إضافياً على الحاجة الماسة للأخذ بالتصور التداولي - الذي يعتبر المقترَّب لغرايسي منطلقه الفعلي - في تأويل الإحالة الزمنية، كما يبين المثال [17] الموالي²⁷، الذي يختلف عن الأمثلة السابقة في كونه يمثل تلويحاً حوارياً مخصصاً (Particularized Conversational implicature) من ناحية علاقة المثال بسياق معين، حيث يستدعي التلويح المخصص سياقاً (أو سيناريو) خاصاً ومحدداً، لكي يتم التوصل إليه؛ لأنه يتعلق بمناسبة خاصة (Particular occasion): [17] الوضع نفسه دائماً في الحفلات: إما أن يسكر ولا يتحدث معه أحد، أو لا أحد يتحدث معه ويسكر²⁸.

26 المرجع السابق
27 - المثال مأخوذ من: 113 (Thèse de doctorat, Université de Genève, 2015), Cristina Grisot, «Temporal Reference: Empirical and Theoretical Perspectives. Converging Evidence from English and Romance» مع تعديل الفاعل في تعريب المثال، وهو تعديل لا يخرج المثال عن وجه الاستشهاد، لأنه مجرد التأت.

28 - It's always the same at parties: either I get drunk and no-one will talk to me or no-one will talk to me and I will get drunk)



د. محمد عالي المختار التقى؛
أستاذ جامعي وباحث مهتم بالدراسات حول المجال والمجتمع

خريطة اللغات الغرب إفريقية وروافد التنوع اللغوي في موريتانيا:

قراءة جغرافية

مقدمة:

من التفاعلات البشرية والهجرات والتبادلات الاقتصادية والثقافية والدينية. وتُصنف هذه اللغات ضمن ثلاث مجموعات كبرى هي: الأسرة النيجر-كونغولية، ومن أبرزها الفولانية والولوفية والسوننكية؛ والأسرة الأفروآسيوية، وعلى رأسها العربية بلهجاتها المختلفة وبعض اللغات الأمازيغية؛ والأسرة النيلية الصحراوية، مع هيمنة واضحة للأسرة النيجر-كونغولية التي تنتمي إليها لغات واسعة الانتشار³. ولا تمثل هذه المجموعات اللغوية حدودا مغلقة أو منفصلة، بل تتداخل فيما بينها عبر مجالات التماس التاريخية الواقعة في النطاق الساحلي والصحراوي، حيث لعبت التجارة والهجرات والزوايا العلمية والمؤسسات الدينية دورا مهما في تعزيز الاحتكاك اللغوي والتبادل الثقافي بين الجماعات المختلفة⁴. وتؤكد الدراسات العربية المعاصرة أن غرب إفريقيا ليس مجالا لغويا متشظيا بقدر ما هو فضاء تواصل متعدد المراكز، تتداخل فيه اللغات المحلية مع العربية بوصفها لغة دين وثقافة⁵. ومن ثم، فإن الخريطة اللغوية لغرب إفريقيا لا تعكس فقط تعدد اللغات، وإنما تكشف أيضا عن تاريخ طويل من التفاعل الحضاري والتثاقف بين المجتمعات الإفريقية والعربية، وهو ما يجعلها إطارا مرجعيا ضروريا لفهم موقع موريتانيا داخل هذا الفضاء المتنوع.

ومحيطها الساحلي والصحراوي. وذلك للإجابة عن التساؤل حول ملامح الخريطة الجغرافية للغات الوطنية في موريتانيا؛ وحول كيف هو إسهام الموقع الجغرافي لموريتانيا في تشكيل بنيتها اللغوية والثقافية؛ وحول طبيعة الامتدادات المجالية للحسانية واللغات الوطنية الإفريقية داخل الفضاء الغرب إفريقي. وللإجابة عن هذه التساؤلات، اعتمدنا مقاربة جغرافية-لسانية تستند إلى تحليل الخرائط والأطالس اللغوية، ومراجعة الأدبيات التاريخية والسوسiolسانية والثقافية، والاستفادة من المعطيات المتاحة حول اللغوية في موريتانيا، وذلك بهدف إبراز العلاقة بين اللغة والمجال من جهة، وفهم دور موريتانيا بوصفها فضاء للتفاعل والتثاقف بين العالم العربي وإفريقيا جنوب الصحراء.

أولا: الخريطة اللغوية لغرب إفريقيا: تنوع لغوي وإثني ثري

1- التنوع اللغوي في غرب إفريقيا

تعتبر منطقة غرب إفريقيا من أكثر مناطق العالم ثراء من حيث التنوع اللغوي والإثني، إذ تضم مئات اللغات المنتمية إلى أسر لغوية متعددة تشكل نتاجا لتاريخ طويل

تعتبر القارة الإفريقية من أكثر مناطق العالم ثراء من حيث التنوع اللغوي؛ إذ تضم مئات اللغات المنتمية إلى أسر لغوية كبرى¹. وفي هذا السياق تبرز موريتانيا كإحدى أهم مناطق التماس اللغوي والثقافي في غرب إفريقيا؛ فبحكم موقعها الجغرافي عند نقطة التقاء المجال المغربي العربي والمجال الغرب إفريقي متعدد اللغات والثقافات، تحولت إلى فضاء انتقالي تتداخل فيه الروافد العربية والصنهاجية والإفريقية، وتتقاطع داخله الامتدادات الصحراوية مع المجالات النهرية والساحلية. وقد أفرز هذا الموقع بنية لغوية متميزة تقوم على التعايش بين العربية بصيغتها الرسمية والحسانية بصيغتها التداولية من جهة، وبين البولارية والسوننكية والولوفية بوصفها لغات وطنية ذات امتدادات إقليمية واسعة من جهة أخرى².

وانطلاقا من ذلك المعطى، نسعى في هذا المقال إلى تحليل الخريطة الجغرافية للغات الوطنية وروافد التنوع اللغوي في موريتانيا من منظور الجغرافيا الثقافية والجغرافيا اللغوية، للكشف عن البنيات المجالية التي تحكم توزيع اللغات، ورصد امتداداتها الداخلية والإقليمية، وفهم أدوارها في بناء الهوية وتعزيز التواصل الثقافي بين موريتانيا

Heine, B., & Nurse, D. (Eds.). (2000). African Languages: An Introduction. Cambridge University Press, p: 1 - 1

BA, A. Y., & Ouedraogo, A. E. (2018). Portrait des dynamiques linguistiques et de l'alphabetisation en Mauritanie: Une analyse à partir des données du Recensement Général de la Population et de l'Habitat de - 2013. Observatoire démographique et statistique de l'espace francophone (ODSEF), Université Laval., p: 28

Heine, B., & Nurse, D. (Eds.). (2000). op.cit, pp: 1-15 - 3

ibid, p: 15 - 4

5 - ولد آباء، محمد المختار. (2010). تاريخ موريتانيا الثقافي. أبوطي: هيئة أبوطي للثقافة والتراث، ص 45



تشكيل المجال اللساني للصحراء الغربية. حيث ساعدت البيئة الصحراوية المفتوحة، وطرق القوافل العابرة للصحراء، وشبكات التعليم الديني، على ترسيخ الحسانية كلغة للتواصل بين جماعات متعددة داخل المجال الصحراوي الممتد من جنوب المغرب إلى موريتانيا وأجزاء من مالي والسنغال والنيجر.

وهو المجال الجغرافي الذي تشكلت فيه الحسانية بوصفها التعبير التداولي الأكثر انتشارا للعربية داخل المجال الصحراوي الغرب إفريقي، نتيجة تفاعل طويل بين الروافد العربية والصنهاجية والإفريقية. ولذلك لا يمكن اختزال الحسانية في كونها مجرد لهجة عربية بدوية، بل ينبغي النظر إليها باعتبارها نتاجا لمجال ثقافي صحراوي واسع تشكل عبر قرون من الحركة والتبادل والاحتكاك الحضاري.

وتتميز الحسانية في الوقت الحالي بكونها تتجاوز الحدود السياسية الحديثة؛ فهي تمتد داخل حزام صحراوي واسع يبدأ من جنوب المغرب، ويمر بالأقاليم الصحراوية وموريتانيا، ليصل إلى شمال مالي وأجزاء من السنغال والنيجر وجنوب غرب الجزائر. ويمزج هذا الامتداد وضعية خاصة كلغة مجال ثقافي أكثر من كونها لغة محصورة داخل دولة بعينها.

ومن منظور جغرافي، فإن هذا الامتداد الشاسع للحسانية يكشف عن وجود مجال ثقافي صحراوي مترابط تاريخيا، حافظ على وحدته النسبية رغم التحولات السياسية الحديثة. ولذلك يمكن اعتبار الحسانية إحدى أهم اللغات العابرة للحدود داخل غرب إفريقيا، بما تؤدبه من وظائف ثقافية واجتماعية ورمزية تربط بين المجتمعات الصحراوية المختلفة.

دين وثقافة وتعليم وإدارة في عدد من الممالك الإسلامية التاريخية⁷. ولم يكن انتشار العربية مجرد عملية لغوية، بل كان جزءا من حركة حضارية أوسع أسهمت في بناء فضاء ثقافي مشترك بين المغرب العربي وغرب إفريقيا. حيث أضحت العربية لغة للمعرفة الشرعية والتدوين التاريخي، والمراسلات والمعاملات التجارية، مما عزز حضورها في المجتمعات الإفريقية الإسلامية.

ولقد برزت موريتانيا في هذا السياق بوصفها إحدى أهم بوابات عبور اللغة العربية نحو إفريقيا جنوب الصحراء. وقد لعبت المحظرة الشنقيطية دورا محوريا في هذا العبور، من خلال استقطاب طلبة العلم من مختلف مناطق الساحل وغرب إفريقيا، والمساهمة في نشر اللغة العربية والعلوم الإسلامية خارج المجال الموريتاني⁸.

3- مكانة الحسانية ضمن

خريطة اللغات العربى إفريقية

تعتبر الحسانية أحد أبرز المكونات اللغوية والثقافية في المجال الصحراوي لغرب إفريقيا، إذ تمثل وعاء حضاريا تشكل في سياق تفاعل طويل بين الهجرات العربية والصنهاجية والإفريقية. وقد ارتبط انتشارها التاريخي بتحركات قبائل بني حسان المنحدرة من عرب المعقل، وبالدور الذي لعبته التجارة الصحراوية في إعادة

ولقد ساهم الموقع الجغرافي لغرب إفريقيا في تعزيز هذا التنوع؛ إذ شكلت المنطقة منذ قرون فضاء مفتوحا يربط بين الساحل الأطلسي والمجال الصحراوي وشبكات التجارة الداخلية. كما أسهمت المراكز التجارية الكبرى وطرق القوافل القديمة في نقل اللغات والثقافات والأفكار، الأمر الذي أدى إلى نشوء مجالات لغوية واسعة تتجاوز الحدود السياسية المعاصرة. وتبرز أهمية هذا التنوع في كونه يمثل أحد أهم مكونات التراث الثقافي غير المادي للمنطقة. فاللغات المحلية لا تؤدي وظيفة التواصل فحسب، بل تشكل خزانات للمعرفة الشعبية، وللذاكرة التاريخية، ولأنماط التعبير الأدبي والفني والديني، وهو ما يجعل المحافظة عليها جزءا من المحافظة على التنوع الثقافي للمجتمعات الإفريقية⁶.

2- مكانة اللغة العربية في

إفريقيا جنوب الصحراء

لقد احتلت اللغة العربية مكانة بارزة داخل المجال الغرب إفريقي منذ القرون الوسطى، حيث ارتبط انتشارها بانتشار الإسلام وازدهار التجارة الصحراوية وظهور المراكز العلمية والزوايا الدينية. وقد ساهمت شبكات القوافل التي ربطت شمال إفريقيا ببلدان السودان الغربي في نقل اللغة العربية إلى مناطق واسعة من الساحل وغرب إفريقيا، لتتحول تدريجيا إلى لغة

Dahmed, M. (2023). "Diversité culturelle et culture de l'unité" [Communication présentée lors d'une journée scientifique]. Faculté des Lettres et Sciences Humaines, Université de Nouakchott Al Aasriya, - 6 Nouakchott, Mauritanie

Levtzion, N., & Hopkins, J. F. P. (Eds.). (2000). Corpus of Early Arabic Sources for West African History. Markus Wiener Publishers, p: 5 - 7 (ICESCO. (2024). Séminaire international sur la langue arabe et son rayonnement en Afrique. Organisation du Monde Islamique pour l'Éducation, les Sciences et la Culture (ICESCO - 8

وهي تشكل بهذا مدخلا مهما لفهم الدور الذي تؤديه موريتانيا داخل فضاء التفاعل العربي-الإفريقي.

ثانيا: تنوع الروافد الجغرافية

والثقافية لخريطة اللغات الوطنية

لقد نشأت موريتانيا عند ملتقى روافد وجسور حضارية عديدة أسهمت في بناء شخصيتها الثقافية واللسانية الراهنة، الأمر الذي أفرز بنية لغوية مركبة تتعايش داخلها العربية والحسانية مع اللغات الوطنية الإفريقية. وفي ظل هذا المعطى نسعى ضمن هذا المحور إلى تحليل الروافد التاريخية والثقافية التي أسهمت في تشكيلها، والكشف عن الأبعاد المجالية التي حكمت انتشار اللغات الوطنية وتفاعلها داخل المجال الموريتاني وعبر حدوده الإقليمية، بهدف فهم الخريطة اللغوية الموريتانية.

1- الامتداد المجالي العابر للحدود، للهجة الحسانية

تمثل الحسانية اليوم المكون اللغوي الأكثر انتشارا داخل موريتانيا، غير أن أهميتها لا ترتبط فقط بعدد الناطقين بها، وإنما بطبيعة المجال الجغرافي والثقافي الذي تشكلت داخله. فالحسانية ليست مجرد لهجة محلية مرتبطة بحدود الدولة الوطنية، بل هي لغة مجال صحراوي واسع يمتد من جنوب المغرب والأقاليم الصحراوية مرورا بموريتانيا، وصولا إلى جنوب غرب الجزائر وشمال مالي وأجزاء من السنغال والنيجر⁹.

ويعكس هذا الامتداد استمرارية فضاء ثقافي وتاريخي سابق على الحدود السياسية الحديثة، تشكل خلال قرون من الحركة السكانية والتواصل الحضاري عبر التجارة الصحراوية

والروابط القبلية والدينية. ولذلك فإن المجال الحساني يمثل أحد أبرز النماذج الإفريقية للغات العابرة للحدود، حيث حافظ على قدر كبير من التجانس الثقافي رغم التباعد السياسي بين الدول التي ينتشر داخلها.

ويكشف هذا الانتشار الممتد للحسانية، من منظور الجغرافيا الثقافية، عن وجود مجال ثقافي صحراوي متصل تاريخيا، ظل قائما رغم التحولات السياسية الحديثة، ما يمنحها مكانة خاصة داخل الخريطة اللغوية لغرب إفريقيا.

2- الهجرات الهلالية وبنية الانتشار المجالي للحسانية كلغة سائدة

يرتبط تشكل الحسانية تاريخيا بحركات الهجرة العربية التي شهدتها المجال الصحراوي الغربي خلال العصور الوسطى، خاصة هجرات قبائل بني حسان المنحدرة من عرب المعقل. وهي الهجرات التي أسهمت في إعادة تشكيل التوازنات السكانية والثقافية داخل الصحراء الغرب إفريقية خاصة، وأدت تدريجيا إلى انتشار العربية بصيغتها الحسانية داخل المجال الموريتاني الحالي¹⁰.

ولقد جاء هذا الانتشار في سياق عملية تاريخية طويلة من التفاعل بين الوافدين العرب والمجتمعات الصنهاجية المحلية. حيث أدى الاحتكاك المستمر بين الوافدين العرب وتلك المجموعات إلى تشكل لهجة جديدة استوعبت عناصر عربية وصنهاجية وإفريقية داخل نسق لغوي واحد، وهو ما يفسر خصوصية الحسانية مقارنة ببقية اللهجات العربية.

وقد لعبت طرق القوافل العابرة

للصحراء، في هذا السياق، دورا أساسيا في تعزيز انتشار الحسانية خارج مراكز الاستقرار التقليدية؛ حيث كانت القوافل التجارية تنقل السلع والناس والثقافات واللغات في الوقت نفسه. وإلى جانب التجارة، ساهمت الزوايا العلمية والمؤسسات الدينية في ترسيخ الحسانية والعربية داخل المجال الصحراوي، حيث أصبحت اللغة وسيلة للتعليم والتبادل الثقافي ونشر المعرفة الدينية. ونتيجة لذلك تحولت الحسانية تدريجيا إلى لغة للتواصل المشترك بين جماعات ذات أصول إثنية متنوعة.

ومن ثم، فإن فهم انتشار الحسانية يقتضي النظر إليها باعتبارها نتاجا لتفاعل معقد بين عوامل الهجرة والتجارة والدين والمجال الجغرافي، لا باعتبارها مجرد امتداد مباشر للهجرات العربية وحدها.

3- الرصيد الصنهاجي والأمازيغي في الخريطة اللغوية الموريتانية

بالرغم من الانتشار الواسع للحسانية، فإن الخريطة اللغوية الموريتانية ما تزال تحتفظ بآثار قوية للروافد الصنهاجية والأمازيغية التي شكلت أحد المكونات الأساسية للمجتمع الموريتاني قبل انتشار الحسانية. ولا تزال آثار الإرث الصنهاجي حاضرة بوضوح في الطوبونيميا، حيث تحتفظ العديد من المواقع والجبال والآبار والمناطق الموريتانية بأسماء ذات أصول أمازيغية أو صنهاجية. كما أن بعض المدن الكبرى، مثل نواكشوط ونواذيبو، تمثل شواهد حية على استمرار هذا الإرث داخل المجال الجغرافي الموريتاني¹¹.

ويكشف هذا المعطى أن انتشار الحسانية لم يؤد إلى محو كامل

9 - بنت الكوري، أم الخوت، (د.ت)، خريطة اللهجة الحسانية والمشتق اللغوي بين موريتانيا والمغرب، مقال قيد النشر.

10 - ابن خلدون، (2004). كتاب العبر ودعوان المبتدأ والخبر (ج6). بيروت: دار الفكر، ج 6، ص 91.

11 - ولد حرمة، محمد المختار، (د.ت)، اللغة الصنهاجية في موريتانيا: طغيان الطوبونيميا وانحسار الاستخدام، ص 23، 39.

للمجتمع الموريتاني، وأسهمت في بناء فضاء ثقافي مشترك تجاوز الحدود السياسية الحديثة.

ثالثا: خارطة اللغات في موريتانيا، بوتقة انصهار للغات الغرب إفريقية

تمثل موريتانيا إحدى أكثر الدول الإفريقية تميزا من حيث موقعها الجغرافي وتركيبها الثقافي واللغوي، حيث تقع عند التقاء المجال المغربي العربي بالمجال الغرب إفريقي متعدد اللغات والثقافات. وقد جعلها هذا الموقع الاستراتيجي فضاء للعبور والتفاعل والتبادل الحضاري عبر قرون خلت، وأكسبها خصوصية جعلتها تضطلع بوظيفة الوسيط بين العالمين العربي وإفريقيا جنوب الصحراء. وهو الموقع الانتقالي الذي يمكن من فهم الخريطة اللغوية الموريتانية.

1- موريتانيا في قلب المجال الساحلي-الصحراوي

تنتمي موريتانيا جغرافيا إلى المجال الساحلي-الصحراوي الممتد من المحيط الأطلسي غربا إلى القرن الإفريقي شرقا، الذي يشكل أحد أكبر المجالات الانتقالية في القارة الإفريقية. والتميز بكونه فضاء مفتوحا للتواصل والحركة البشرية والتبادل الاقتصادي والثقافي، حيث ظلت الحدود الطبيعية أقل تأثيرا من شبكات الحركة التاريخية التي ربطت بين شمال إفريقيا وجنوبها. ولقد احتلت موريتانيا داخل هذا المجال موقعا استراتيجيا جعلها إحدى أهم بوابات الاتصال بين المغرب العربي وغرب إفريقيا. حيث شكلت أراضيها جزءا من المجال التاريخي الذي عبرته القوافل التجارية القادمة من سجماسة وواد

بين موريتانيا ومحيطها الإفريقي؛ ويسهم في تعزيز الروابط الاجتماعية والتاريخية بين المجموعات السكانية التي تشترك وتتقاسم هذه اللغات على جانبي الحدود. كما يمنح اللغات الوطنية قيمة استراتيجية باعتبارها رصيда ثقافيا يمكن توظيفه في تعزيز التكامل الثقافي، وتطوير التعاون الإقليمي.

5- المحظرة وشبكات نشر العربية جنوبا

تعتبر المحظرة الشنقيطية من أهم اللبئات الثقافية التي أسهمت في تشكيل المجال اللغوي والثقافي لموريتانيا وللمنطقة الساحلية-الصحراوية عموما. والتي أسهمت أيضا في تعزيز مكانة العربية كلغة علم ودين وثقافة، وحافظت في الوقت نفسه على قدر من الانفتاح على البيئات الثقافية المحلية. حيث لعبت المحظرة دورا محوريا في نشر اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وربط المجال الموريتاني بمحيطه الإفريقي عبر شبكات علمية ممتدة إلى مختلف بلدان الساحل وغرب إفريقيا. حيث لم تقتصر وظائف المحظرة على التعليم المحلي، بل تحولت عبر الزمن إلى فضاء علمي عابر للحدود استقطب طلابا من مختلف بلدان غرب إفريقيا، خاصة من المناطق غير الناطقة بالعربية. وهم الطلاب الذين أسهموا في نقل اللغة العربية والثقافة الإسلامية إلى مجتمعاتهم الأصلية بعد عودتهم، مما جعل المحظرة إحدى أهم أدوات الإشعاع الثقافي الموريتاني في إفريقيا.

وتبرز أهمية المحظرة كذلك في كونها ربطت اللغة بالمجال، حيث انتشرت داخل البيئات البدوية والريفية بصورة جعلتها أكثر قدرة على التكيف مع الخصائص المجالية

للرصيد اللغوي السابق، وإنما أسفر عن تراكم ثقافي استوعبت خلاله اللغة الحسانية كثيرا من المفردات والتعابير والعناصر الثقافية الصنهاجية المحلية. ولذلك تبدو الحسانية أقرب إلى بنية لغوية هجينة نتجت عن تفاعل طويل بين العربية والصنهاجية وبعض اللغات الإفريقية. ما جعل الحسانية تمثل نموذجا واضحا للتداخل اللغوي؛ حيث تستند إلى قاعدة عربية قوية، لكنها تحتفظ في الوقت نفسه برصيد معجمي وصوتي وثقافي متأثر باللغات الصنهاجية وبعض اللغات الإفريقية جنوب الصحراء، وهو ما يعكس طبيعة المجال الذي تشكلت داخله¹².

4- اللغات الوطنية الإفريقية وامتداداتها الإقليمية

لا يكتمل فهم الخريطة اللغوية الموريتانية دون التوقف عند اللغات الوطنية الإفريقية التي تمثل أحد أهم روافد التنوع الثقافي واللغوي في البلد؛ فالبولارية والسوننكية والولوفية ليست لغات محلية معزولة، بل تنتمي إلى مجالات لغوية ممتدة داخل بلدان عديدة في غرب إفريقيا. فالبولارية تعتبر من أكثر اللغات انتشارا في القارة الإفريقية، حيث توجد في أكثر من عشرين دولة، وتشكل إحدى أهم لغات التواصل بين المجتمعات الرعوية في المجال الساحلي. أما السوننكية فترتبط تاريخيا بالمجال الثقافي لوادي السنغال والإمبراطورية الغانية القديمة، بينما تمثل الولوفية إحدى اللغات الرئيسية في السنغال والمجالات المجاورة لها¹³.

ويمنح هذا الامتداد الإقليمي للغات الوطنية الموريتانية بعدا يجعلها قنوات للتواصل والتبادل الثقافي

12 - Heath, J. (2004). Hassaniya Arabic (Mali): Poetic and Ethnographic Texts. Otto Harrassowitz Verlag - 13 - وإد خليفة، محمد سالم، 2014، حياة وثقافة الفولان، مقال منشور، على الموقع «أرم انيوز»، تاريخ النشر يوم 19 - 03 - 2014

ويكشف هذا التوزيع عن وجود تدرج لغوي واضح بين الشمال والجنوب، لكنه لا يعبر عن قطيعة أو انفصال، بل عن شبكة من العلاقات والتداخلات التي أنتجت الحركة السكانية والتفاعل الاقتصادي والثقافي عبر الزمن. وفي هذا السياق تعرف موريتانيا مستويات متفاوتة من التعدد اللغوي تبعا للخصائص الجغرافية للمجال؛ ففي حين تسجل بعض الولايات الداخلية نسباً مرتفعة من الأحادية اللغوية، تظهر مستويات أعلى من التعدد اللغوي في نواكشوط ونواذيبو والولايات النهرية، نتيجة لكثافة الحركة التجارية والهجرات والتواصل بين الجماعات المختلفة¹⁷.

الحياة اليومية أساساً من خلال اللهجة الحسانية التي تشكل لغة التواصل الأكثر انتشاراً داخل البلاد، بينما تتوزع اللغات الوطنية الإفريقية في مناطق جغرافية محددة ترتبط بتاريخ الاستقرار البشري ومجالات النشاط الاقتصادي. حيث تنتشر الحسانية في معظم ولايات البلاد الشمالية والوسطى والغربية، وتشكل اللغة الغالبة في المجال الصحراوي الموريتاني، في حين تتركز البولارية والسوننكية والولوفية أساساً في الولايات الواقعة على امتداد نهر السنغال وفي المناطق الحدودية الجنوبية، مع وجود امتدادات متزايدة لهذه اللغات داخل المدن الكبرى بفعل التحضر والهجرة الداخلية (الخريطة: 2).

الخريطة (2): خارطة اللغات واللهجات المحلية¹⁶



نون ودرعة نحو المراكز التجارية الكبرى في السودان الغربي، كما كانت محطات شنقيط وولاتة وودان وتيشيت مراكز رئيسية لتبادل السلع والأفكار والمعارف في المنطقة. ولذلك ظلت موريتانيا منطقة تفاعل حضاري كثيف ساهم في إنتاج أنماط لغوية وثقافية جديدة، ناتجة عن التفاعل المستمر بين المكونات العربية والصنهاجية والإفريقية. وينعكس هذا البعد الحضاري لموقع موريتانيا في المرجعية الدستورية للدولة، التي تؤكد في ديباجتها وأحكامها على الانتماء العربي والإفريقي لموريتانيا، وعلى اعتبار التنوع الثقافي واللغوي ركيزة من ركائز الوحدة الوطنية¹⁴. ومن ثم فإن الموقع الجغرافي لموريتانيا يساعد على فهم خارطتها اللغوية وخصوصيتها الثقافية باعتبارها مجالاً للتفاعل بين فضاءات حضارية متعددة.

2- ملامح الخريطة اللغوية لموريتانيا

تمثل الجغرافيا عاملاً حاسماً في تشكيل الخريطة اللغوية، كما أن التوزيع الحالي للغات الوطنية يرتبط بصورة مباشرة بالبنية المجالية لتوزيع المجتمع الموريتاني. وفي هذا الإطار تعكس الخريطة اللغوية لموريتانيا صورة مركبة للتعدد الثقافي الذي يميز المجتمع الموريتاني. حيث يعترف الدستور الموريتاني بأربع لغات وطنية هي العربية والبولارية والسوننكية والولوفية، مع اعتماد العربية لغة رسمية للدولة¹⁵. غير أن هذا التصنيف القانوني يخفي داخله واقعا أكثر تعقيدا من الناحية المجالية؛ إذ تتجسد العربية في

.République Islamique de Mauritanie. (2024). Constitution de la République Islamique de Mauritanie (version consolidée), pp. 2-3 - 14 ibid, p: 3 - 15

16 - المصدر: تعريب من الباحث هو:

.Leclerc, J. (2014). Mauritanie : situation linguistique. Dans L'aménagement linguistique dans le monde. Québec : CEFAN, Université Laval BA, A. Y., & Ouedraogo, A. E. (2018), op.cit, p: 10 - 17

خاتمة

تكشف القراءة الجغرافية لخريطة اللغات الوطنية وروافد التنوع اللغوي في موريتانيا، أن الخريطة اللغوية في موريتانيا لا تمثل مجرد توزيع جغرافي لمجموعة من اللغات المتجاورة، بل تعكس بنية مجالية وثقافية معقدة تشكلت عبر قرون طويلة من التفاعل بين الصحراء والساحل، وبين الروافد العربية والصنهاجية والإفريقية. وقد أظهر تحليل الخريطة أن الموقع الجغرافي لموريتانيا عند ملتقى المجال المغربي والمجال الغرب إفريقي منحها مكانة خاصة بوصفها فضاء انتقاليا وجسرا حضاريا بين العالم العربي وإفريقيا جنوب الصحراء. وانعكس في بنيتها اللغوية التي تقوم على التعايش بين العربية بصيغتها الرسمية والحسانية بصيغتها التداولية من جهة، والبولارية والسوننكية والولوفية بوصفها لغات وطنية ذات امتدادات إقليمية واسعة من جهة أخرى. وهي البنية التي تمثل أحد المرتكزات الأساسية للهوية الوطنية الموريتانية التي يكرسها الدستور الموريتاني الذي ينص على أن الشعب الموريتاني يعترف بتنوعه الثقافي ويجعله أساسا للوحدة الوطنية، ويعتبر أن العربية والبولارية والسوننكية والولوفية تمثل تراثا وطنيا مشتركا يجب على الدولة صيانتها وترقيته، مع اعتماد العربية لغة رسمية للجمهورية¹⁹. وهو الاعتراف الدستوري الذي يعكس إدراكا لأهمية التنوع اللغوي باعتباره عنصرا من عناصر التماسك الوطني، ورصيда ثقافيا قادرا على تعزيز الاندماج الاجتماعي والتنمية الثقافية.

والشمالية الداخلية ترتفع أحادية الفهم اللغوي كثيرا، بينما يزداد التعدد اللغوي في نواكشوط ونواذيبو والولايات النهرية. حيث بلغت نسبة من يفهمون لغة واحدة فقط 92.3% في الحوض الشرقي، و89.9% في تكانت، و88.3% في العصابة، مقابل 59.5% فقط في نواكشوط و55.1% في داخله نواذيبو و57.7% في تيرس زمور؛ كما سجلت كوركول 76.9%، والترارزة 78.2%، وكيدي ماغه 75.3%، وهي نسب تعكس مجالا حدوديا أكثر انفتاحا على التعدد والاحتكاك¹⁸.

وتؤكد هذه الخارطة اللغوية والبنية الإحصائية للألسن، أن موريتانيا لا يمكن اختزالها في ثنائية «شمال عربي» و«جنوب إفريقي»، بل تعد مجالا تتداخل فيه روافد لغوية وثقافية متعددة. ولذلك تبدو صورة «بوتقة الانصهار» أكثر قدرة على تفسير الواقع اللغوي الموريتاني من التصورات القائمة على الفصل بين الكتل اللغوية والثقافية. حيث أسهم التاريخ المشترك، وشبكات الحركة البشرية، ومؤسسات التعليم التقليدي، والروابط الاقتصادية والاجتماعية، في إنتاج مجال لغوي متعدد الروافد، حافظ على خصوصياته المحلية وظل في الوقت نفسه مفتحا على محيطه المغربي والإفريقي.

ومن ثم، فإن الخريطة اللغوية الموريتانية تمثل انعكاسا مباشرا لوظيفة البلاد التاريخية بوصفها جسرا حضاريا بين الصحراء والساحل، وبين العالمين العربي والغرب إفريقي، ما يفسر استمرار دورها كفضاء للتواصل والتفاعل الثقافي داخل المجال الساحلي-الصحراوي.

3- الجغرافيا الداخلية للتماس اللغوي

تعتبر الجغرافيا عاملا حاسما في تشكيل التعدد اللغوي؛ وتعد موريتانيا في هذا السياق نموذجا واضحا لما تسميه الجغرافيا اللغوية بـ«مناطق التماس اللساني»، وهي المجالات التي تتجاور فيها مجموعات لغوية متنوعة وتتفاعل فيما بينها عبر الهجرة والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية. وتتركز أهم مناطق التماس اللغوي في موريتانيا في الضفة الشمالية لنهر السنغال، حيث تتجاور الحسانية مع البولارية والسوننكية والولوفية داخل فضاء واحد. وقد ساهمت الخصائص الاقتصادية لهذه المناطق، خاصة النشاط الزراعي والتجاري، في تعزيز التواصل بين الجماعات المختلفة، مما أدى إلى انتشار أنماط متعددة من ازدواج اللغوي والتعدد اللساني.

وتمثل المدن الكبرى وفي مقدمتها نواكشوط ونواذيبو، فضاءات رئيسية للتداخل اللغوي نتيجة لاستقطابها مهاجرين من مختلف الولايات والمجموعات الثقافية والإثنية. حيث تتراجع الحدود التقليدية بين المجالات اللغوية داخل تلك المدن، وتظهر أشكال جديدة من التفاعل بين العربية والحسانية واللغات الوطنية الأخرى، إضافة إلى الفرنسية التي لا تزال حاضرة في بعض المجالات التعليمية والإدارية.

حيث ترتفع مستويات التعدد اللغوي بوضوح داخل المجالات الحضرية مقارنة بالولايات الداخلية الأكثر تجانسا من الناحية اللغوية؛ إذ تكشف معطيات التعداد العام للسكان والمساكن لسنة 2013 أن هذا التوزيع ليس متجانسا داخل البلاد؛ ففي المناطق الشرقية

ibid, pp: 5-10 - 18

République Islamique de Mauritanie. (2024), op.cit, pp: 2-3 - 19

قائمة المراجع والمصادر

1. ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (ج6). بيروت: دار الفكر (2004).
2. بنت الكوري، أم الخوت، (د.ت)، خريطة اللهجة الحسانية والمشارك اللغوي بين موريتانيا والمغرب، مقال قيد النشر.
3. ولد أباه، محمد المختار. تاريخ موريتانيا الثقافي. أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (2010).
4. ولد حرمة، محمد المختار. (د.ت.). اللغة الصنهاجية في موريتانيا: طغيان الطوبونيميا وانحسار الاستخدام.
5. ولد خليفة، محمد سالم، 2014، حياة وثقافة الفولان، مقال منشور، على الموقع «ارم انيوز»، تاريخ النشر يوم 19 - 03 - 2014
- <https://www.culture.gov.mr/ar/node/140>
6. BA, A. Y., & Ouedraogo, A. E. (2018). Portrait des dynamiques linguistiques et de l'alphabétisation en Mauritanie: Une analyse à partir des données du Recensement Général de la Population et de l'Habitat de 2013. Observatoire démographique et statistique de l'espace francophone (ODSEF), Université Laval.
7. Dahmed, M. (2023). Diversité culturelle et culture de l'unité [Communication présentée lors d'une journée scientifique]. Faculté des Lettres et Sciences Humaines, Université de Nouakchott Al Aasriya, Nouakchott, Mauritanie.
8. Heath, J. (2004). Hassaniya Arabic (Mali): Poetic and Ethnographic Texts. Otto Harrassowitz Verlag.
9. Heine, B., & Nurse, D. (Eds.). (2000). African Languages: An Introduction. Cambridge University Press.
10. ICESCO. (2024). Séminaire international sur la langue arabe et son rayonnement en Afrique. Organisation du Monde Islamique pour l'Éducation, les Sciences et la Culture (ICESCO).
11. Leclerc, J. (2014). Mauritanie : situation linguistique. Dans L'aménagement linguistique dans le monde. Québec : CEFAN, Université Laval.
12. Levzion, N., & Hopkins, J. F. P. (Eds.). (2000). Corpus of Early Arabic Sources for West African History. Markus Wiener Publishers.
13. République Islamique de Mauritanie. (2024). Constitution de la République Islamique de Mauritanie (version consolidée).

كما أبرزت تلك القراءة أن الحسانية ليست مجرد لهجة عربية محلية؛ بل هي لغة مجال صحراوي واسع يمتد عبر عدد من بلدان الساحل والصحراء. وقد أسهمت الهجرات الهلالية، وشبكات التجارة العابرة للصحراء، والمؤسسات الدينية والعلمية، وفي مقدمتها المحظرة الشنقيطية، في ترسيخ هذا الامتداد وفي تشكيل فضاء ثقافي مشترك تجاوز الحدود السياسية الحديثة.

وفي المقابل أظهرت تلك القراءة أن اللغات الوطنية الإفريقية، ولاسيما البولارية والسوننكية والولوفية منها، لا تمثل مكونات هامشية داخل المشهد اللغوي الموريتاني فحسب، بل تشكل امتدادا طبيعيا للمجال الثقافي لحوض نهر السنغال وغرب إفريقيا. وهو ما يمنح موريتانيا قدرتها على الجمع بين الانتماء العربي والإفريقي داخل فضاء وطني واحد، وعلى أداء دور الوسيط الثقافي واللغوي بين هذين المجالين الحضاريين.

ومن الناحية الجغرافية، بينت تلك القراءة أن الخريطة اللغوية لموريتانيا تتسم بوجود تدرجات مجالية واضحة، تتمثل في هيمنة الحسانية داخل المجال الصحراوي، وتمركز اللغات الوطنية الإفريقية في الولايات النهرية والحدودية، إلى جانب بروز مراكز حضرية متعددة اللغات كنواكشوط ونواذيبو.

وتقود هذه النتائج مجتمعة إلى استنتاج محوري مفاده أن التنوع اللغوي في موريتانيا لا ينبغي النظر إليه بوصفه معطى ثقافيا يكشف عن تعايش بين لغات مختلفة فحسب، بل باعتباره رأسمال استراتيجي مصدرا للغنى الحضاري يمكن أن يساهم في تعزيز التنمية الثقافية، وترسيخ التماسك الاجتماعي، وتقوية الاندماج الإقليمي داخل فضاء الساحل وغرب إفريقيا. حين يُدار هذا التنوع ضمن رؤية ثقافية وتربوية متوازنة. وفي ضوء هذا الاستنتاج والنظرة الإيجابية لهذا التنوع، نقترح التوصيات التالية:

- إعداد أطلس لساني وطني يواكب التحولات الديموغرافية والمجالية التي يشهدها المجتمع.
- تعزيز البحث العلمي في مجال الجغرافيا اللغوية والدراسات السوسiolسانية المرتبطة بالمجال الساحلي - الصحراوي.
- دعم توثيق التراث الشفهي المرتبط بالحسانية واللغات الوطنية، باعتباره جزءا من التراث الثقافي.
- استثمار التعدد اللغوي لتعزيز الوحدة الوطنية، من خلال سياسات تعليمية وثقافية واعية.
- تشجيع التعاون العلمي والثقافي مع بلدان الساحل وغرب إفريقيا في مجالات البحث اللغوي وحماية التراث الثقافي المشترك.



الشيخ محمد اليدالي وآراؤه النقدية من خلال كتابه «المربي شرح صلاة ربي»

1- مقدمة:

لا تسعفنا الأدلة والآثار المتوافرة حاليا بوجود «محاولات نقدية» في هذه البلاد قبل القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي، وهو التاريخ نفسه الذي يبدأ معه ظهور النصوص الشعرية في هذه البلاد، ومثلما أثارت نشأة الشعر العربي قدرا غير قليل من الجدل والخلاف، لعبت قضية نشأة الشعر العربي في «شنقيط» دورا ملموسا في إذكاء النقاشات، وخلق الأجواء للأطروحات والمقترحات المختلفة، مما كان له أثره مع عوامل أخرى في ظهور الحركة النقدية الحديثة في البلاد خلال الثلث الأخير من القرن العشرين.

ونحن نرى ضرورة التوقف عند العمل الأول والوحيد المنتمي إلى القرن 12هـ، 18 م الذي يمكن تصنيفه في «خانة» النقد بمعنى من المعاني، وهو صادر أيضا عن شاعر¹ من أبرز شعراء هذه الحقبة الشعرية الريدانية، وأحد أبرز الفاعلين فيها أدبيا وعلميا، وحتى اجتماعيا وسياسيا، فكيف ستتم قراءة «كتاب المربي شرح صلاة ربي» للعلامة المجدد والشاعر الرائد والعالم الخبير بأسرار الشعر

والبلاغة، هذا إذا لم ندعه الناقد المؤسس الشيخ محمد اليدالي في سياق وصف أنماط حالات الارتباط المختلفة بين ظهور النقد وظهور الإبداع، وما ستقدمه هذه الظاهرة النقدية الإبداعية «الأولية» في هذا المشغل الذي نأمل أن يلتفت إليه بعض الباحثين فيسدد فيه فراغا طالما احتيج إلى سدده في الدراسات الداخلة في إطار النظرية الأدبية، ومبحث مناهج النقد، على أن الذي يهمنا نحن في هذا المقال يتحدد أساسا في معرفة طبيعة الآراء، والأطروحات النظرية والتطبيقية التي جاء بها «محمد اليدالي»² ومدى تهيئتها الأجواء لمزيد من «الملاحظات» النقدية طوال القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي، ومحاولة تصنيفها وتقييم دورها في مسار النقد الأدبي في المراحل اللاحقة لهذه البلاد.

2- كتاب المربي شرح صلاة ربي

يمثل عمل اليدالي في كتابه «المربي شرح صلاة ربي»³ عملا نقديا متركبا من بعدين: أولهما: نقد تطبيقي يتمثل في إحساس الشاعر بأزمة الإبداع خاصة

على المستوى الموسيقي، وهو من أبرز مرتكزات بنية النص الشعري -إذ أن النص الشعري العربي التقليدي نص منجز سلفا من خلال إطار ملتزم على نحو صارم سواء بالنسبة للوحدة الدنيا (البيت) أو بناء النص الموسيقي العام، ابتداء بالالتزامات بالعلل والزحافات، وانتهاء بالقافية والروي. إن هذه «القيود القسرية» ستستتبعها تلقائيا التزامات مصاحبة مترتبة عليها في الأبعاد الأخرى الصوتية والتركيبية والدلالية..

وستكون محاولة هذا الشاعر من أشد المواقف صراحة ووضوحا في سعيها لتجاوز «العمود الخليلي» والإحساس الضمني بعجزه، وستمثل جهدا مبكرا للوصول إلى نسق موسيقي وبنائي جديد للنص العربي سوف تتأخر السياقات الأخرى في العالم العربي قرنين من الزمن تقريبا حتى تشرع في مثل هذه المحاولات وإن كانت ستبدأ على نحو أكثر استحياء وخجلا من مبادرة اليدالي الجريئة.

ثانيهما: قيام الشاعر/ الناقد بشرح تجربته الإبداعية «من خلال عمل أشمل يتمثل في مقارنة تأويلية لنصه عموما ودواعي قوله، وطموحاته التجديدية في مغايرة

1 - هو محمد اليدالي: انظر ترجمته في الإحالة المأولة.

2 - محمد اليدالي: عالم شعر وشاعر رائد عاش في منطقة الجنوب الغربي، كانت له مكانة معتبرة عند أمراء اترارزه ولبراكنه - توفي سنة 1166 هـ - 1752م.

انظر في ترجمته:

- الشيخ محمد اليدالي: المجموعة الكبرى من مؤلفات الشيخ محمد اليدالي، تصحيح ودراسة د. إسحاق ولد الرجل أحمد سالم، و المختار الرجل أحمد سالم، نشر زاوية محمد اليدالي، طباعة دار الإبراء 2025 ص8

- أحمد بن الأمين: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ط 4 - دار الحائلي القاهرة - مؤسسة

منير - موريثانيا 1989 - ص 173.

- النابغة الفلاوي: النجم الثاقب في بعض ما للبدالي من مناقب، تحقيق محمد بن باباء، المطبعة المدرسية، المعهد التربوي الوطني، دت، ص1

- محمد بن باباء: الشيخ محمد اليدالي، حياته وآثاره، دار الرضوان، نواكشوط، 2018، ص16

3 - حقتة د. محمد بن أحمد بن الطالب عيسى الشنتيقي، ونشره في طبعته الأولى 2003 دون إشارة لمكان طبعه

الشيخ محمد اليدالي حياته وأثره العلمي

تأليف
محمد بن ولد باباه

بناء النص عموماً - لا الموسيقي فحسب- للنص التقليدي، مما يعد جهداً مضافاً وواعياً في جهود التجديد الشعري والتنظيري والنقدي وليس موقفاً إبداعياً عابراً أصم. كما أن عمل الرجل يخرج عن دائرة الشروح التقليدية - وإن اعتمد عليها في سنده الثقافي وأدواته التحليلية - بالإضافة إلى مختلف أطروحات التفسير والتأويل وشرح النصوص التي تراكت عبر الزمن، وإن كانت بلغت مداها الأوسع في العصر الحديث.

3- قصيدة صلاة ربي:

ولكن ما قصيدة « صلاة ربي مع السلام»⁴ وما تصورات صاحبها عن منزلتها في الأنساق الإبداعية الشعرية العربية التقليدية، وسيبادر اليدالي نفسه إلى الإجابة عن هذين السؤالين وسنحاول نحن بدورنا أن نقدم مقترحاتنا بهذا الشأن.

يقول اليدالي:

«سبب إنشادي هذه القصيدة أني مررت يوماً وأنا على جناح الأسفار ببعض أرباب الملاهي والأوتار يردد نغماً من الألحان الملحونة، وفنا من الأغاني الحسانية الموزونة، فشغفت بذلك الفن، وطن على أذني منها ما طن فاستحسننت أن أمدحه عليه الصلاة والسلام بقصيدة عربية على أسلوب الأنغام فنسجت على منوالها وحذوت على مثالها»⁵.

فالرجل إذن يقوم بعملية نقل لجماليات النص الشعبي الحساني، وهو نص مشبع بترانيم الحنين الهلالية⁶، وملاحم شعوب حضارة

النهر الإفريقية، والموروث الشعبي الصنهاجي القديم إلى النص العربي الفصيح المثقل بترجمات الاجترار والإعادة والدوران حول اللعبة «العمودية» «فنيا وداليا».

4- دور المتلقي:

وإذا كان اليدالي اهتم بالنص، فإنه لم يغفل المتلقي وعلاقته بالمديح، وكيف للمبدع أن يمارس عملية إقناع إبداعية للمتلقي، في ارتباط واضح بين الدراسة النفسية، وبعد الاستقبال أو التلقي⁷ «تتيم (أي القصيدة) ذوي الألباب، وترقصهم [طرباً] وتهيم أهل الآداب، وتذهلهم عجباً، وتصيد قلوبهم بشبكات أفاظها [اللطيفة] وحبائل فواصلها المستطابة الشريفة، حتى إن النفوس تكاد ترشفها عسلاً ومأماً والأذواق السليمة تهيم في محاسنها غراماً، فكل فاصلة منها درة يتيمة، وجوهرة لها في سوق الأدب أعلى قيمة»⁸.

قد أعطى اليدالي عناية كبرى

لنصه، وقارئه، فإنه لم يهمل الناقد بمفهومه الدارج الذي يعد أحد أهم أطراف المعادلة الإبداعية، وهو يحدد مواصفات الناقد في نظره في عودة لافتة إلى الارتباط الحميم بين النقد والبلاغة⁹.

«وهذه القصيدة لا يدرك بلاغتها إلا أهل الذوق والتمرن في علمي المعاني والبديع، وذووا الفطر السليمة، وذلك لأن معرفة البلاغة والفصيح والأفصح والرشيح والأرشق، لا تدرك إلا بالذوق ولا يمكن وصفها إلا بإقامة الدليل عليها كاستقامة الوزن، كما أن المرأة «قد تكون أحلى في العيون والقلوب ولا يدرك سبب ذلك، ولكنه يدرك بالذوق والمشاهدة، وأهل الذوق ليسوا إلا الذين اشتغلوا بعلم البيان وراضوا أنفسهم بالرسائل والخطب والكتابة والشعر، وصارت لهم بذلك ملكة تامة»¹⁰.

4 - انظر نضها مع شرح المؤلف لها: اليدالي: المربي شرح صلاة ربي: مصدر سابق، وانظر أيضاً أحمد بن الأمين: الوسيط ص 223، 235.

5 - محمد اليدالي: المربي شرح صلاة ربي ص 16.

6 - المقصود هنا الرحلة الهلالية الشهيرة التي أجاحت خلالها المغرب العربي قبائل بني هلال والمغل في القرن الرابع الهجري، الحادي عشر الميلادي: فكرست عربونه إلى غير رجعة، وقد استقرت آخر امتداداتها غرباً بمحلة في قبائل المغل وبني حسان خاصة في الصحاري الموريتانية منذ القرن السادس الهجري، الثالث عشر الميلادي.

انظر صالح بن عبد الوهاب: الحسوة البيسانية في الأنساب الحسانية، نواكشوط 2002.

أحمد (جمال) ولد الحسن: الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري - جمعية الدعوة الإسلامية بليبيا 1995م، ص 51-66.

7 - طبعاً نبيه هنا إلى خطورة ربط هذه التصورات بمفاهيم ونظريات النقد الغربي، ربطاً سببياً وهي تكشف أن الخطاب النقدي والتنظيري العربي ظل يواصل تطوير نفسه ضمن أفقه الفكري الحضاري وآلياته الفنية الخاصة، دون أن تغفل حدود هذا التطوير وتواصله في الزمان والمكان.

8 - اليدالي: المربي شرح صلاة ربي ص 16-17.

9 - «وهو مقصد قلته المدرسة المنطقية في البلاغة العربية منذ السكاكي والقزويني، ولم يكن قلة استثناء من ذلك فما نعلم سوى محمود عبد القاهر المرحلي ت 471هـ في كناية دلائل الإنجاز وأسرار البلاغة.

10 - محمد اليدالي: ديوان شعر الشيخ محمد اليدالي، تحقيق الأمير بن أكاه، دائرة الثقافة والإعلان بالشارقة، 2016، ص 381.

وهو يكشف عن جهد إبداعي «تقني» للسيطرة على عملية الاستفادة من النص دون أن يحدد بعدا لهذه الاستفادة سلبا أو إيجابا «إذ لقصر فواصلها يعسر على منوالها الإنشاد، بحيث لا يقدر الشاعر أن يأتي بكمال غرضه المراد¹⁵» .

والشاعر يقدم تحليلا مجملا لقصيدته يكشف عن خبرة نقدية في ممارسته للنصوص، ووصفها، وتقييمها، بغض النظر عن كون النص يخص الشاعر إذ

لا ينبغي أن يفهم ثناء الرجل على نصه أنه نوع من الميل الشخصي إلى مدح الذات والثناء على النفس، وتضخم الأنا، إن الهدف منه في نظرنا الإيحاء بمكانة النص التجديدية، بحسبه، وخطره في التجارب الإبداعية الشعرية العربية حتى عصر الشاعر، ناهيك عن غرضها وهو مدح النبي صلى الله عليه وسلم كما صرح به هو نفسه يقول: « فجاءت بحمد الله تعالى لطلاوة نظمها، وحلاوة رسمها، ونهاية بلاغة جمعها، وغاية براعة صفها، ولذيد مذاقها، ولطيف مساقها وانسجام ألفاظها ورقتها، وعذوبة معانيها، ودقتها، عجيبة الأوضاع، عذبة الألفاظ في الأسماع، جزلة المباني، بديعة المعاني، عديمة النظير، بديعة التحرير أخذة

على حبيبي خير الأنام
بر عطف ليث همam
ذاك الشفيع يوم القيام
قطب الجلال قطب الكرام
صافي الزلال لكل ظام¹¹

مستفعلاتن مرة واحدة، وليس من أجزاء تفعيلات الشعر المعروفة. وقد يدخله الخبن، وهو حذف الثاني الساكن فينتقل إلى مفاعلاتن وهو حسن لأنه أخف، ويدخله أيضا الطي، وهو حذف الرابع الساكن فينتقل إلى مفتعلاتن. ومن الشعر الحساني الذي اقترنت به هذه القصيدة :

لا امصيب
هيب¹²

يل داير
كون ول

صلاة ربي مع السلام
بادي الشفوف داني القطوف
ذاك الرفيع الغوث المنيع
عين الكمال عين الجمال
نافي الضلال صافي الظلال

5- اليدالي بين التقليد والتجديد

وإذا كان اليدالي ينطلق من ثقافته العربية النقدية البلاغية التقليدية فإنه حاول أن يطور المفاهيم، ويحددها، ويضبط المصطلحات كما رأينا في الاستشهاد السابق. وهو يعود إلى مقارنته بين النص

سولان\\
منه طفل
ابلا اعجب
اعرب

الشعبي الحساني والنص العربي الفصيح المتناص معه من خلال البعد الموسيقي الذي يضمن في داخله - كما أشرنا سابقا - مجمل الأبعاد الفنية الدلالية المتشابهة. وسنورد أبياتا من القصيدة قبل أن نرى تعليقه على طبيعتها الموسيقية :

يقول اليدالي : «وزن القصيدة ليس من أوزان البحور الستة عشر بزيادة المتدارك، إلا أن أشبه البحور بها مشطور مخلع البسيط، والمترنة به هذه القصيدة من أجزاء التفعيل:

فإذا تأملت هذا الشعر، وهذه القصيدة وجدتها على بحر واحد، وبيت واحد، إلا أن ذلك حساني، وهذه عربية¹³.
يثير اليدالي قضية المناصة، أو السرقة في بعض مفهوماتها مزوجة «بعبقرية النص» وعجز الآخر الشاعر عن اكتشاف شفرة النص، ويقدم تصويره عن ذلك «فطرزتها حلة سيراء على سنن يقطع أعناق الشعراء عن أن تشرئب أفكارهم إلى محاذاتها، أو تلمح أذهانهم إلى محاكاتها¹⁴».

11 - اليدالي: الديوان، تحقيق الأمير بن أكاه، الشارقة، 2016، ص 181
12 - يتساءل الشاعر الحساني الذي اختلف الباحثون حول اسمه ليؤكد حقيقة يريد تفرها عن من هو أبرز فتي عربي، تتوفر فيه صفات الفتوة العربية، واشتهرت عنه عند القاضي واليدالي، إلا أن يكون «ابن هبة» أي الأمير المدوح. ويكي اليدالي باقتضاب قصته مع هذا الأمير الذي سمع أن اليدالي «حول» قصيدته = التي مدحه بها الشاعر الشعبي، فقد أرسل إليه رساله عن أمر القصيدة فقال له اليدالي جوابا فيه هو خير منك ومتي، فآكان من الأمير إلا أن أطرق وقال صدقت، وأجازوه وجعلها هدية سنوية.
- انظر المربي ص 22-25
وقد أورد صاحب الوسيط بيتا حسانيا ذكر أن الشاعر نسج على منواله يختلف عن ما أوردته اليدالي ويبدو أقرب إلى الخط الموسيقي لنص اليدالي الفصيح والبيت هو:
خط نخطها لام نفضة - أنجرت القفة يوم القيام
أي عرف أعرفه والمقصود شعر حاسي رائع أقوله سأجته فيه بإخلاص لأنني سأحصل على ثوابه يوم القيامة وهو طبعاً شعر شعبي في مدح الأمير، الوسيط ص 223
وولد هيب: هو أحمد بن هبة بن نفاش- تولى إمارة ليركانة في الجنوب الأوسط من موريتانيا حالياً بعد أخيه الأمير الشهير محمد بن هبة، كان أميراً قويا خاض عدة حروب مع أمراء من منطقتة، وكان له حرص على العدل والأمن ت 1175 هـ / 1862 م
انظر - اليدالي: المربي شرح صلاة ربي ص: 22-23
الطالب أحمد بن أطوير الجنة: تاريخ ابن أطوير الجنة تحقيق سيد أحمد ولد أحمد سالم الرباط 1995، ص 72
13 - اليدالي: المربي - ص 20
14 - اليدالي: المربي - ص 17
15 - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

بأزمة العقول»¹⁶.

ولعل من أهم ما لاحظناه في هذه الآراء المركزة لمحمد اليدالي أنها جاءت مقصودة من صاحبها، وليست ملاحظات عرضية، أو إشارات عابرة، ناهيك عن وعيه العميق بالمسافة الناهضة بين المستويين الشعبي والفصيح، وهي مسافة كانت عصية القطع على كثير من أسلافه من الشعراء والعلماء، في حين كان ردم تلك الأخاديد، وطي تلك المسافة هدفا جوهريا عنده، ولا يمنعه من ذلك كونه شاعرا كتب قبل هذا عشرات القصائد العمودية والتقليدية - ولا ندري إن كان كتب بعدها شيئا على شاكلتها أو يتجاوز مداها - ولا منزلته المعروفة كأحد كبار علماء عصره ومحافظيهم، بل إن هذا الشاعر كان من أوائل من تغزل بالمرأة في شعره حيث أن العصر الذي قبله - وقد ضاع معظم إنتاج أهله - عزز فيه شاعر لأنه قال بيتين من الغزل في امرأة¹⁷.

6- خاتمة:

ولا شك أن اليدالي مثل تجربة فريدة في القرن الثاني عشر الهجري، واستطاع أن يقدم في ما وصلنا من أعماله -وقد يكون ضاع بعضها - مجموعة من الآراء التي يمكن استثمارها في نظرية الأدب والنقد الأدبي، والتفسير والتأويل من منظور المساهمة العربية الإسلامية الأصلية والعلاقة بين مستويات الإبداع الإنساني، والثقافات المختلفة، والشفاهية والكتابية، وهي آراء لم نجد لها نظيرا في عصره وبلده فهل استطاع القرن 13هـ 19م أن ينجب من الشناقطة من تجاوز اليدالي؟ وذلك ما سنخصص له المقال القادم بحول الله.

7- المصادر والمراجع:

أحمد (جمال) ولد الحسن: الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، مساهمة في وصف الأساليب، جمعية الدعوة الإسلامية بليبيا 1995م.
أحمد بن الأمين: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ط 4 - دار الخا نجى القاهرة، مؤسسة منير، موريتانيا 1989

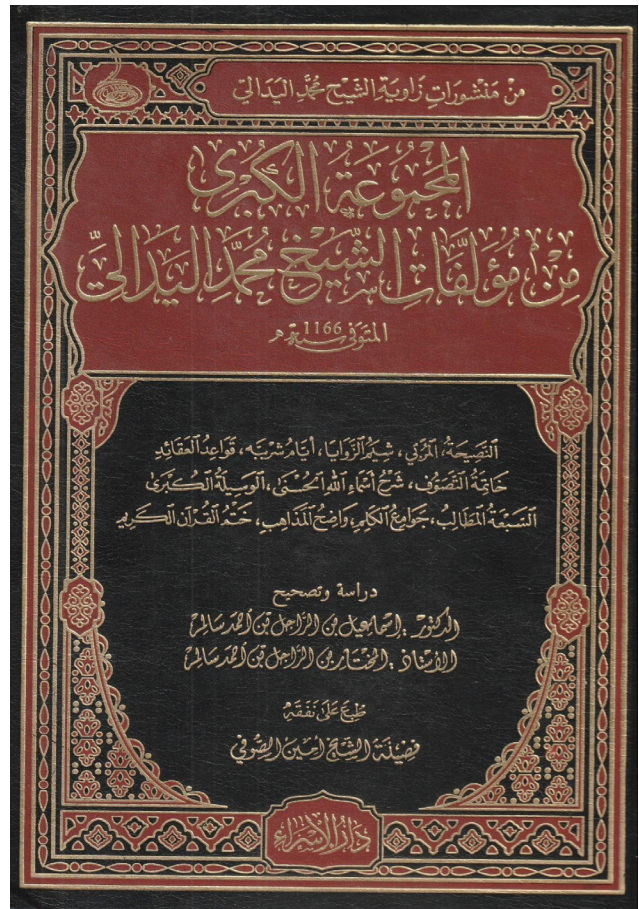
الشيخ محمد اليدالي: المجموعة الكبرى من مؤلفات الشيخ محمد اليدالي، تصحيح ودراسة د. إسماعيل ولد الراجل أحمد سالم ، و المختار الراجل أحمد سالم ، نشر زاوية محمد اليدالي ، طباعة دار الإسرائ 2025 صالح بن عبد الوهاب: الحسوة البيسانية في الأنساب الحسانية، نواكشوط 2002
الطالب أحمد بن أطوير الجنة: تاريخ ابن أطوير الجنة تحقيق سيد أحمد ولد أحمد سالم الرباط 1995،
محمد الحسن محمد المصطفى: النقد الأدبي في موريتانيا القضايا والمناهج، منشورات اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين، نواكشوط 2025 .

محمد اليدالي : ديوان شعر الشيخ محمد اليدالي ، تحقيق الأمير بن آكاه ، دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة ، 2016 ،

محمد اليدالي: المربي شرح صلاة ربي: تحقيق د. محمد بن أحمد بن الطالب عسى الشنقيطي - 2003 (دون ذكر مكان النشر)

محمذن بن باباه : الشيخ محمد اليدالي، حياته وآثاره ، دار الرضوان ، نواكشوط ، 2018

الناطقة القاوي: النجم الثاقب في بعض ما لليدالي من مناقب، تحقيق محمذن بن باباه، المطبعة المدرسية، المعهد التربوي الوطني، دت



16 - المصدر نفسه ص 18

17 - انظر أحمد (جمال) ولد الحسن: الشعر الشنقيطي ص: 82



المخطوطات الموريتانية بين تحديات الواقع وآفاق المستقبل

تقديم

إن الحديث عن موضوع المخطوطات الموريتانية الواقع والآفاق يقتضي تحديد النقاط الأساسية التي يمكن من خلالها بلورة أساسيات تحديات الواقع بالنسبة لهذه المخطوطات، وأيضا رهانات المستقبل المتعلقة بسبل حفظ وتنميين هذه المخطوطات بوصفها تراثا ثميناً وغنياً يعكس ازدهار الحياة العلمية في بلاد شنقيط. ومما لا ريب فيه أن هذا التراث مهدد بالاندثار والتهميش والضياع مما يحتم على المهتمين به والواعين بقيمته التحرك سريعا لوضع برامج تمكن من تلافي ما قد يحل به من أخطار قد تفقدنا للكثير منه تلتا أو تهريبا أو ضياعا، وعموما يمكن التأكيد على أن انقاذ المخطوطات الموريتانية ليس مجرد عمل تقني بل هو مشروع حضاري يتطلب تكامل الجهود بين الدولة والمجتمع والباحثين، فالدولة بمؤسساتها وتمويلها والمجتمع بوعيه بقيمة هذا التراث، والباحثين بعملهم على خدمته دراسة وتحقيقا يشكلون معا جهدا متكاملا ومنسقا يمكن أن يحقق النتائج المرجوة في عملية حفظ هذا التراث وصونه.

أولا: نحو تشكيل وعي بأهمية المخطوطات الموريتانية:

إن المطلع على الدراسات المتخصصة في مجال المخطوطات وتاريخها سيفهم بسهولة مدى قيمة ما تزخر به موريتانيا من تراث مخطوط بشتى أصنافه مصاحف وكتب، ومجاميع، ووثائق وغيرها.

والأهم من ذلك سيعرف الدور المحوري لموريتانيا في التأسيس لتاريخ الخط والنساخت والتأليف والنشاط الثقافي بصفة عامة. في غرب إفريقيا فالمصادر تتحدث عن إشارات هامة في هذا الصدد، فمثلا يعد أول أثر مكتوب يوجد له ذكر في المصادر التاريخية بمنطقة الغرب الإفريقي، هو صك تجاري ذكر ابن حوقل أنه اطلع عليه في مدينة أوداغست سنة 361هـ 971م

فيه حق لتاجر يطالب به أحد تجار المدينة يقدر ب اثنين وأربعين ألف دينار، وقد انبهر ابن حوقل به معللا أنه لم ير له شبيها بالمشرق¹ وإذا تحدثنا عن التأليف سنجد أن الدراسات المتخصصة أيضا تكاد تجمع على أن منطقة الغرب الإفريقي عرفت باكورة التأليف مع قاضي المرابطين بأزوكي الإمام الحضرمي ت 489هـ ومن أشهر كتبه كتاب الإشارة في تدبير الإمارة²

ورغم هذا المؤشر المبكر على بداية التأليف في المنطقة إلا أن صمت المصادر سيحرمنا معرفة وتتبع مسار تطور حركة التأليف بعد هذه الفترة طيلة أربعة قرون أو أكثر. حتى نصل القرن العاشر ليظهر لنا نشاط متزايد في التأليف كان الودانيون بموريتانيا متصدرين فيه من خلال كتاب موهوب الجليل الذي هو تأليف مهم من شروح خليل وقد

الفه سيدي محمد بن أحمد بن أبي بكر الوداني من أهل القرن العاشر والذي كان حيا سنة 933هـ³ وإذا نظرنا من زاوية المخطوطات النادرة والكتب الثمينة في مجالاتها فإن موريتانيا تملك من ذلك ما تفرد به دون غيرها. ليس فقط في إقليمها الذي تصنف ضمنه ثقافيا وهو غرب إفريقيا، بل إنها تملك ما لا يملكه أي بلد في العالم فبعض هذه المخطوطات هو عبارة عن مؤلفات مفقودة في العديد من المكتبات العربية والإسلامية كالنسخة النادرة من كتاب تصحيح الوجوه والنظائر من كتاب الله العزيز لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري تم نسخها بخط مشرقى سنة 489هـ وهي موجودة بمكتبة أهل حبت بشنقيط، كذلك مخطوط معاهد التنصيص في شرح شواهد التلخيص بخط مؤلفه عبد الرحيم

1 - محمد أحمد سالم أحمد، الخط والمخطوط في بلاد شنقيط، من النشأة إلى نهاية القرن الرابع عشر الهجري، الطبعة الأولى 2020، ص 96

2 - أحمد شوقي بنين، «مدخل إلى الكتاب الإفريقي المخطوط، مقال منشور ضمن كتاب: المخطوطات العربية الإفريقية، (الضمانة، الفهرسة، التحقيق، الكوديكولوجيا)، مؤسسة محمد السادس للماء الأفرقة الطبعة الأولى 2023، ص 11

3 - Mohamed El-Mokhtar OULD BAH., Le Malikisme en Mauritanie: Fondements et Evolution, Publications de L'Université Moderne de Chinguetti, P 46



وكذلك تعدد عناوينها فحسب إحصاء مشروع صيانة وتثمين التراث الثقافي الموريتاني الذي انجز سنة 2004 فإن عدد المخطوطات الموريتانية يقدر بحوالي 40000 ألف مخطوط تتوزع على حوالي 675 مكتبة تشكل مكتبات المدن التاريخية منها نسبة 35%⁴ وأغلب هذه المكتبات هي مكتبات خصوصية منتشرة في الأرياف. هذا فضلا عن ما هو موجود منها خارج البلد تم نهبه وتهريبه إبان الحقبة الاستعمارية وبعدها، وهو يقدر بالآلاف. أما إذا نظرنا إلى تعداد المخطوطات ليس بحساب المؤلفات والكتب فقط وإنما بحساب الوثائق أيضا فإن العدد سيصبح بمئات الآلاف بل بالملايين.

وتتوزع عناوين هذه المخطوطات بين مختلف فنون المعرفة والعلم: القرآن وعلومه والحديث، والعقيدة، والأصول، والفقه، واللغة بمختلف تخصصاتها من نحو وصرف وبلاغة وأدب، والتصوف، وعلوم السر والطناسم، والرقيا، والطب التقليدي والهندسة، والفلك، والفلسفة والمنطق، وغيرها وحسب بعض إحصائيات المعهد الموريتاني فإن أكثر هذه المؤلفات هو في الفقه بحوالي 10131 مخطوط يليه القرآن وعلومه بحوالي 2344 مخطوط. كما تتجلى هذه الأهمية إذا نظرنا إلى هذه المخطوطات من زاوية تنوع وتعدد مصادرها. فهي حصيلة الاقتناء، والشراء، والتأليف والنسخة، فقد اقتنى الموريتانيون كتبهم المخطوطة بالشراء والاهداء وكونوا مكتبات بذلك وقد ذكرت المصادر بعض هذه المكتبات العتيقة

العباسي وقد نسخها بالقاهرة سنة 901هـ وانتهى من تصحيحه سنة 934هـ، كذلك رسالة شرح علة ترتيب اقليدس أشكال كتابه في الهندسة تأليف ثابت ابن قرة ت 288هـ ويوجد بشنقيط، ومن نوادر المخطوطات أيضا مخطوط مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي كتب على رق الغزال في القرن الرابع الهجري وتوجد هذه المخطوطة بقسم المخطوطات بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي⁵، كما توجد النسخة المخطوطة الوحيدة في العالم من كتاب: الضروري في صناعة النحو لابن رشد الحفيد لدى مكتبة باب ولد هارون بن الشيخ سيديا، وقد فاز هذا الكتاب مؤخرا في مسابقة مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة في مجال المخطوطات في نسختها الأولى بالمرتبة الأولى صنف الكتب المخطوطة.

وفي نفس المسابقة أيضا فازت وثيقة كنت قد شاركت بها إذ حصلت على الرتبة الثالثة قاريا وهي عبارة عن سلسلة تيجانية عمرية⁶ كتبت سنة 1301هـ منقولة من أصلها المكتوب سنة 1288هـ وبه سند التيجانية العمرية المتصل بشيخ ومؤسس الطريقة عبر عبد الكريم الناقل عن مولود فال عن محمد الحافظ تلميذ الشيخ أحمد التيجاني مما يثبت تمسك العمرية بسندها الحافظي الشنقيطي رغم أخذ الشيخ عمر الفتوي بسند آخر يمر عبر محمد الغالي بن محمد فتحة الإدريسي المغربي المتوفى 1244هـ

وتتأكد هذه الأهمية أيضا إذا نظرنا من زاوية أعداد هذه المخطوطات

ففي كتاب فتح الشكور إشارات عديدة لذلك فمثلا يشير المؤلف في ترجمته لشيخ القراء سيدي عبد الله بن أبي بكر التناجوي إلى كونه جاء من المغرب بخزانة كتب نفيسة⁷ وكذلك الحال بالنسبة للشيخ سيديا الذي تشير المصادر إلى أنه جاء بمكتبته من المغرب⁸ وينطبق نفس الأمر على الطالب أحمد بن طور الجنة الذي تذكر المصادر أنه جاء بحمولة ثلاثين بعيرا من الكتب أهدها له السلطان المغربي مولاي عبد الرحمن⁹ كذلك الحال بالنسبة لسيدي عبد الله ابن الحاج إبراهيم. بل إن بعض المكتبات اقتناها أصحابها من داخل البلاد كما هو الحال مع الطالب أحمد بن محد راره الذي تذكر المصادر أنه أرسل مالا مع تلميذ له لشراء الكتب من مناطق

4 - لمعرفة المزيد حول المخطوطات النادرة في المكتبات العامة والخاصة الموريتانية يمكن الرجوع إلى :

الطالب أحمد بن سيدي أحمد بن طور الجنة، أقدم المخطوطات في المدن التاريخية، مجلة الوسيط العدد 16، 2018، صص 10-12

5 - انظر الملاحق

6 - محمد أحمد سالم، الخط والمخطوط، مرجع سابق،

7 - الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرنزي الوفاي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق وتعليق : عبد الودود ولد عبد الله وأحمد جال ولد الحسن، دار نجيبويه، القاهرة، 2010، ص 368

8 - الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط « عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (الحاضر)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987، ص 151

9 - محمد الأمين بن الكباب، وأدان نبذة عن تأسيسه ومؤسسه ومختلف هجراتهم منه، ص 62

ثانيا: جهود الحفظ والصيانة والفهرسة والتحقيق

إن جهود حفظ وصيانة التراث المخطوط في موريتانيا تعد جهودا متنوعة، منها جهود الحفظ والترميم والمعالجة، ومنها جهود التحقيق والدراسة، ومنها جهود الفهرسة وإعداد القوائم، وكل أنواع هذه الجهود قديمة وليست جديدة فمن جهود الحفظ والترميم القديمة ما تحدثنا عنه آنفا بخصوص الصناعات التقليدية ومعالجتهم للمخطوطات المتضررة، وصناعة أوعية حفظها، وبالنسبة لإعداد القوائم وذكر عناوين فاهم تجاربه القديمة أعمال الولائيين ككتاب فتح الشكور الذي دون صاحبه الكثير من عناوين مؤلفات الموريتانيين ممن ترجم لهم. كما جمع أبو عبد الله محمد المصطفى بن مولود كتابه العمل المشكور في جمع نوازل التكرور من فتاوي علماء البلاد وحفظ بذلك مضامين مخطوطات ضاع أغلبها . وفي الحقبة الاستعمارية اهتم مستشرقون وكتاب واداريون فرنسيون واربليون بالمخطوط الغرب افريقي ومن ضمنه المخطوط الموريتاني كما هو الحال مع Octave Houdas المتوفى 1916 والويس ماسينيون ومقاله في مجلة العالم الإسلامي عن مكتبة اهل الشيخ سيديا 1909 وكذلك ابول مارتى.

وتبقى جهود المعهد الموريتاني للبحث العلمي جهودا رائدة فمنذ تأسيسه عكف المعهد على عقد شراكات مع جامعات ومؤسسات اجنبية كجامعة توينغن الألمانية وتعاون مع باحثين كربتشوك الألماني، وكون متخصصين في الصيانة وجمع مايربو على

الاطلاع العالي على جديد التأليف العلمية وشغف أهل تلك القرون الخوالي بالكتب والمؤلفات وحب الاطلاع واكتساب العلم والمعرفة . وإذا نظرنا أيضا الى جانب الكوديكولوجيا المتعلق بشكل الكتاب المخطوط وصناعته وترقيمه. فإن لموريتانيا خصوصية احترافية في ذلك نتيجة لخصوصية تركبتها الاجتماعية التي يوجد بها مجتمع متخصص في الصناعات التقليدية المرتبطة بتجليد الكتب، فالصناعات التقليدية مهرة في صناعة الأغلفة والتجليد التي يحافظ بها على الكتاب والمخطوط وأوراقه، كما أنهم مهرة في صيانتهم إذا تعرض لشقوق وخروم، وهم أيضا مهرة في زخرفة أوراقه بشتى أنواع الزخرفة، وفي صناعة أشكال ونوع الحبر المستخدمة في الكتابة.

غرب وجنوب غرب موريتانيا¹⁰. وبالنسبة للتأليف فجهود الموريتانيين فيه كبيرة فبعض المؤلفين الشناقطة تقارب مؤلفاتهم المائة مؤلف ومن كبار المؤلفين الشيخ ماء العينين، والشيخ سيدي المختار الكتني الكبير، والشيخ سيديا بن الهيبه، ومحمد يحيى بن سليمة، والشيخ سيدي محمد الخليفة الكتني، وعبد الله بن الحاج حماد الله، والشيخ محمد المامي ومحمد يحيى الولاتي، وصالح بن عبد الوهاب، والشيخ حبيب الله بن مايبا الجكني وسيدي عبد الله ابن الحاج إبراهيم العلوي، وأحمد بن محمد الحاجي وغيرهم¹¹. أما النسخة فهي فن شائع بها يستوطن العلم، والنسخ هم مطابع عصرهم في كل حي بدوي، وبعض الكتب المخطوطة بمعرفة هوية ناسخها ومعاصرتهم لمؤلفها رغم تباعدهم في المنازل يتأكد مستوى

10 - فتح الشكور، مصدر سابق، ص 119
11 - المنارة والرباط، مرجع سابق، ص 535-637



وهو جهد يمكنه الاستفادة من الثورة الرقمية التي تسهل كثيرا القيام بالمزيد من جهود الحفظ والتممين. خاصة بالاعتماد على المبادرات الفردية والجماعية ويمكن اختصار ذلك حسب تجربتنا المتواضعة في الآتي:

- العمل على توعية الناس بأهمية التراث المخطوط بوصفه مصدرا موثوقا لمعرفة التاريخ والماضي، وجمع ما يمكن جمعه من مخطوطات ووثائق من ملاكها في الأرياف والقرى النائية، لتحسين ظروف حفظها وفهرستها والوقوف على طبيعتها .

6000 مخطوط و 2789 مخطوطة مصورة بالمكرو فيلم و 250 على الميكرو افيش ورمم 260 مخطوطا بالتعاون مع مشروع اسباني¹² وتم اعداد فهراس لمكتبات ولاته، وشنقيط، وتيشيت، والحوضين، وكورك، وتجكجه.

كما عمل باحثون من المعهد على إخراج العديد من هذه المخطوطات وعلى إعداد موسوعات يتقدمهم المرحوم المختار ابن حامد، وسيدي أحمد ابن الأمير، وغيرهم وأنشأ المعهد موقع المخطوطات الموريتانية، وقام برقمنة عدة مكتبات موريتانية.

المثال لا الحصر يمكن القيام بعرض محتويات بعض المكتبات، أو تنظيم عرض لنماذج الخط التي ترجع لنساح وخطاطين للمنطقة التي ينظم فيها المهرجان أو المؤتمر، وقد جربنا ذلك على هامش النسخة الخامسة عشر من مهرجان عين فربة للثقافة والفنون، حيث نظمنا معرضا شمل 30 لوحة لنماذج من خطوط مشاهير النساخ والخط في منطقة الحوض الغربي، وقد شكل المعرض حافزا للكثيرين على تقديم ما بحوزتهم من نماذج خط لنساح آخرين كي يشملها العرض في مرات قادمة.

- إتاحة الفرصة للباحثين من قبل ملاك المخطوطات للاطلاع على مكتباتهم ومخطوطاتهم، حتى يساهموا في دراستها وتقديمها للطباعة والنشر، بدل أن تظل تراثا معزولا في صناديق محكمة الإغلاق لا يستفاد منه في مجال البحث. نموذج يظهر طريقة قديمة احترافية في معالجة التشقق والخروم بخياطة الورقة بسلك حريري رقيق وناعم يوجد النموذج في خزانة الخاصة.

- رقمنة كل ما يتم العثور عليه منها، ولو اعتمادا على الهواتف الذكية وما تتيحه من برامج رقمنة، حتى وإن قلت جودتها، في انتظار الحصول على وسائل رقمنة أفضل، والاعتماد على جهة ذات خبرة في مجال الرقمنة في مرحلة لاحقة.

- التعريف بالمخطوطات والوثائق غير المصنفة، أو التي نجهل بعض تفاصيل معلوماتها، عبر منصات تفاعلية، كصفحات الفيسبوك مثلا. ففي مرات عديدة تمكن بعض الباحثين من فك شفرات بعض ما بحوزتهم من وثائق من خلال عرضها لرواد منصات التواصل، فتعرف بعض المتفاعلين على هوية كتب ووثائق، ونسبوا لمؤلفيها أو نساحها أو ملاكها من خلال شكل الخط أو معلومات احتواها المخطوط، وكانت تعاليقهم مفيدة في الكشف عن معلومات هامة تتعلق ببعض المخطوطات والوثائق.

- خلق مبادرات على هامش المؤتمرات والمهرجانات لتوعية العامة بأهمية المخطوطات وقضاياها، فعلى سبيل

أما الجهود الفردية فمنها:

جهود مؤلف المنارة والرباط الشيخ الذليل النحوي اسلم بن السبتي وكتابه معجم أسماء المؤلفات الموريتانية المخطوطة محمدن أحمد سالم أحمدو وكتابه: الخط والمخطوط في بلاد شنقيط من النشأة إلى نهاية القرن الرابع عشر هجري.

يحي البراء في عمله القيم المجموعة الكبرى لفتاوي غرب وجنوب غرب الصحراء طلبة الجامعات والمعاهد خاصة جامعة انواكشوط، والمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، والمدرسة العليا للتعليم. فقد حققت عشرات الكتب في إطار إعداد مشاريع بحوث التخرج من قبل طلبة هذه المؤسسات طيلة عقود من الزمن.

خاتمة :

ختاما يمكن القول أن المخطوطات الموريتانية رغم مالها من أهمية ورغم ما بذل من جهود في سبيل حفظها وفهرستها ودراستها، فإن الجهد لازال ناقصا ودون المطلوب

12 - محمدن أحمد سالم، الخط والمخطوط في بلاد شنقيط، مرجع سابق، 231-232



الهيام في الشعر الشنقيطي (دراسة سيميائية)

الهيام تحيل كلها إلى حالة نفسية تهتم بها سيميائية الأهواء، لأنها وصف يدل على انتقال الحب من مرحلة أولية إلى أخرى أكثر عمقا وتجذرا في الحب، هذا المعنى النفسي يجعل الذات توغل في الحب، لتقف على عتبة الجنون، وتتصف بحالة نفسية، هي الحيرة، فالحيرة وإن مثلت العشق والهيام إلا أنها تصور الذات متوقفة التفكير في شيء واحد هو موضوعها وهو المحبوب.

نجد في أحد الزوايا اللغوية مصطلح الهيام معبرا عن وصف الإبل حالة العطش، من ذلك قوله تعالى: (فشاربون شرب الهيم)، فشرب الهيم مبالغة في شدة العطش، كما نجد أن هذا المعنى تكرر في الشعر العربي كثيرا، من ذلك قول ذي الرمة:

سَمَاوَةٌ جَوْنُ ذِي سَنَامَيْنِ مُعْرَضٍ
سَمَا رَأْسُهُ عَنْ مَرْتَعٍ بِحِجَامٍ
إِلَيْكَ وَمِنْ فَيْفٍ كَأَنَّ دَوِيَّهُ

غَنَاءُ النَّصَارَى أَوْ حَنِينُ هِيَامٍ²
يشبهه دوي الفيف بأصوات الذين
يقرأون التراتيل من النصارى، أو
بحنين الإبل العطاش، ونجد في
مقطع لمحمد ولد الطلبة يطلق الهيام
على مطلق العطش، ومن ذلك قوله:

أَتَرَى الْقَوْمَ أَحْسَنُوا أَمْ أَسَاءُوا
أَمْ تَرَى أَنَّ ذَاكَ مِنْهُمْ خَطَاءُ
فَلِكُلِّ بِمَدْحِهِ مِنْهُ سَجَلٌ

فِيهِ مِنْ غَلَّةِ الْهِيَامِ ارْتَوَاءُ³
إن العلاقة الدلالية بين الهيام
كوحدة معجمية تعني حالة

في مجال الأدب بالبعد الأهوائي
الذي اشتغل على دراسة الذات وكل
الحالات النفسية.

ويعد الشعر العربي لوحة في
هوية تمثل العواطف النفسية،
وانعكاسا لتقلبات الذات بين
الفعل والهوى، فنجد أن الصراع
الأموي بين الشعراء ولد عاطفة
جياشة مثلت ضرورة توجه البحث
من خلالها إلى المجال العاطفي،
فانبرى لذلك الكتاب والدارسون
محاولين رسم الحدود الفاصلة
بين هذه المصطلحات، حيث يكمن
التفريق بين كل مصطلح مع الآخر
في نسبة الهوى وكميته، فكلما
ازداد الهوى واشتد هيجانه، وطغى
انفعال الذات، وازدادت حبا انتقلنا
من مصطلح إلى آخر، فكان الهوى
بهذه المسألة مرتبا حسب العاطفة
والانفعال، ذلك ما سنبرزه من خلال
البحث والتلقيب في بطون الدواوين
الشعرية للشعر العربي.

هوى الهيام:

لقد حدد علماء المعاجم اللغوية
هوى الهيام بمصطلحات تحيل
في مجملها إلى معان سيميائية
تقتضي الزيادة في الحب وبلوغه
درجة غير عادية، ففي القاموس
المحيط للفيروزآبادي: (هام يهيم
هيمًا وهيمانًا: أحب امرأة، والهيام:
العشاق الموسوسون، ورجل هائم
وهيوم: متحير، والهيام بالضم:
كالجنون من العشق)¹.
فهذه المعاني التي تضمنها مصطلح

قامت سيميائية الأهواء من خلال
الركام المعرفي والثقافي الذي
عرفته السيميائيات عموما، فانتقلت
الأهواء من التنظير الفلسفي إلى
المجال اللساني، لتحط الرحال
وتؤصل التعقيد في مجال الأدب،
فبعد أن قطع التنظير السيميائي
أشواطًا في قضايا الفعل مهملا
الذات وعواطفها، أرسى دعائم فكره
في مجال الأهواء، وغياهب النفس
وأحاسيسها وانفعالاتها، فتعمق
البحث في نظرية سيميائية الأهواء
التي ظهرت تعميقًا وتنقيبًا وتأصيلًا
مع غريماس وفونتانيني.

ويعتبر مصطلح الهوى من المفردات
المتنقلة عبر الثقافات المتنوعة
والمختلفة باختلاف البشرية، والتي
هي عنصر من عناصر التكوين
البشري، فبما أن الإنسان يعمل
فإنه يحس ويشعر ليحقق بذلك
التأثير في الآخرين، ذلك ما تحاول
سيميائية الأهواء إبرازه من خلال
ما قدمته من مفاهيم وما أسسته من
قواعد.

إن مراتب الهوى التي نحاول الغوص
في تفاصيلها، تندرج ضمن المباحث
الهوية في سيميائية الأهواء،
لأن الدواخل النفسية من التيمات
السيميائية المندرجة تحت مصطلح
الأهواء أو العواطف، فكل مفردة
تعطي تصورا في المعنى تختلف
به عن سواها، إلا أن الهوى يمثل
حبة الخيط الجامعة لفروعها، ذلك
ما جعل له أهمية كبيرة في المبحث
السيميائي، فاهتم النقاد والدارسون

1 - محمد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، نج: أنس محمد الشامي، زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، تاريخ: 2008، مادة: (هام).

2 - ديوان ذي الرمة، نج: د. عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، بيروت، ط 3، 1982، ص 260/

3 - محمد ولد الطلبة، (م س) ص: 101



المؤمنين من هذا الوصف، وقد يكون المقصود بالهيام في مفهوم القرآن هياما حسيا، والذي يعني العزلة عن الناس والهروب بالحب إلى الطبيعة الصافية، وهذه أيضا غير مرضية في الإسلام.

إن المعاني والأوصاف والمنهج الذي بني عليه الشعر العربي قديما، كان هو المنهج الأفضل والصيغة المختارة لدى الشعراء الشنقيطي، فقد عبر الشاعر الشنقيطي عن عواطفه وإحساسه، وصور انفعالاته وفق النظام الشعري القديم، فلئن كان الشاعر الجاهلي أحب وهام وغنى في مقوله الشعري فإن الشنقيطي اتبع تلك الطريق سهولا وهضابا، وأودية متسلحا بالعدة اللغوية ومعبرا عن معانيه العاطفية، ومفضلا الغموض اللغوي تقليدا وإعجابا، وليس الهيام في الشعر إلا وصفا لحالة الحب الذي علت به أصوات الشعراء، فهاموا بسببه تيهًا في الأرض، ووسوسة في الحب، وبحثًا عن هوى المحبوب.

لقد استبطن الشنقاظة الشعر الجاهلي شكلا ومضمونا وحذقوا اللغة العربية مفردات ومعاني، ولذا يعد الشعر الشنقيطي امتدادا للشعر العربي القديم، فالدارس له يعيش لحظات وكأنه بين الشعراء القدماء، ولذا فما ينطبق على الشعر العربي القديم يمثل الشعر الشنقيطي روعة وجمالا وأسلوبا، فلا اختلاف في الأسلوب ولا في المفردات ولا في العواطف السيميائية، وليس هوى الهيام في الشعر الشنقيطي سوى مرآة تعكس القضايا النقدية التي مثلها الشعر الجاهلي.

والهدف من هذا المقال إبراز جماليات الشعر الشنقيطي، لكونه بلغ من الشأ والعلو مرتبة عالية، وأظهر من الجمال ما مكنه من تقبل المناهج النقدية الحديثة، وخاصة ما تعلق منها بالقضايا النفسية، والانفعالات

العطش لدى الإبل، وبينها كوحدة معجمية تدل على أقصى درجات الحب واضحة من حيث الاشتراك الدلالي، فلئن بلغت الناقة أقصى درجات العطش فاشتقت إلى الماء والارتواء، فإن الشاعر اشتاق كذلك للقاء المحبوبة، فهام في القفار وتوطن الصحراء، واعتزل الخيام، حبا وشغفا بالمحبوبة.

ولقد اهتمت سيميائية الأهواء بكل المعاني التي تدخل في الرغبة النفسية، والجنوح العاطفي، فاعتبرت أفعال الذات كلها تعبيرًا عن حالات نفسية، ولذا تطور البحث العلمي في المجال السيميائي من سيميائية الفعل إلى الأهواء، فتناولها الدارسون بالبحث والتنقيب، بدءًا من سيميائية الغضب مرورًا بالغيرة إلى أن وصل إلى التيمات الفرعية والتي من ضمنها هوى الهيام.

وردت كلمة الهيام في الشعر العربي كثيرًا تعبر عن ارتفاع درجة الحب وعمق التعلق القلبي بالمحبوبة، فهو تعبير تصف به الذات حالتها النفسية وصدق هيامها وحيرتها في الحب، وتفكيرها المستمر في الموضوع، إن الحيرة التي تتضمنها كلمة الهيام تجعلها من الأهواء المركبة ذات الأهمية في تيمات الأهواء، فانطوت بداخلها فروع هوائية كثيرة منها: الحيرة والوسوسة والجنون العاطفي، فكلها معان سيميائية عبر عنها هوى الهيام، وقد وصف القرآن الكريم الشعراء بهذا الوصف لكونه أعلى درجة تعبر عن صدق عاطفة الشاعر – وإن كان في المفهوم القرآني سلبيًا – فقال تعالى: {ألم تر أنهم في كل واد يهيمون}، فكان بلوغ الشاعر مرحلة الهيام خطر على النفس واتباع للهوى بمفهومه الشرعي، كما أن الوصول لهذه المرحلة يقتضي التناول دون فعل وتلك صفة من صفات المنافقين، فاستثنى القرآن

العاطفية إذ أنها ركن من الأركان الأساسية في الشعر الغنائي، والتي اختزلت نظريتها فيما بات يعرف في عرف النقاد بنظرية سيميائية الأهواء التي أرادت أن تظهر العلاقة بين العالم الخارجي والذات، كما أرادت أن تجمع بين اللغة والعاطفة، وبين النص والظواهر النفسية.

إن المتصفح للمدونة الشنقيطية يجد أنها تلونت بهوى الهيام ومعناه السيميائي، متضمنًا ما يشكل منه الهيام من حيرة وتفكير ومبالغة في الحب وارتفاع درجات الشوق والحنين، ومن هنا لا يمكن حصر ورود مصطلح الهيام في الشعر الشنقيطي، إلا أنه يعد عاطفة متكررة في الشعر الشنقيطي، مقتديا في ذلك بسلفه الفصيح، ومن ذلك ما عبر عنه محمدو ولد محمدي في ميميته التي يقول فيها:

يَمْنُ أَهِيْمُ بِهَا لَامُوا وَلَوْ هَامُوا هَامُوا
بِمَنْ أَهِيْمُ بِهَا يَوْمًا لَمَّا لَامُوا

فما علق به الفؤاد وما اتصف به الجنان، وما مالت إليه القلوب مما يصعب على النفس التخلي عنه، فحتم النص بعبارة تهيام دالة على الترابط القوي بين الذات والذات المحبوب، ذلك لما يفهم منها من المواصللة والمتابعة، وراحة البال. ولم يغيب هوى الهيام عن شعر محمد ولد الطلبة، بل تخلله المصطلح معبرا عن الهوى السيميائي ووصفا الذات بالتوغل العاطفي المعبر عنه بالهيام، والدال على انشغال الذات بالتفكير في المحبوبة حتى وإن كانت معنوية، وليس الغرض من ذلك سوى اتباع سنن الشعر العربي فقط، يقول محمد ولد الطلبة:

أهيم بمن ما إن يبالي تهيمي
ولم يدّر ما بثي وما هيماني
ومن إن ناني لم تطب لي لذة
وينفر من قربي بحيث يراني
فكلفت همي إثرهم ذا علالة

تخوفته بالنص والذمّان⁴
إن تعبير الذات عن حالتها النفسية، وشعورها الباطني يطبع الشعر بجماليات لا يستغني عنها، وليس الهيام سوى أمر خفي يتطلب اعترافا من الذات بوجوده، وتحديد درجة الحب والعشق، ففي هذه الأبيات نجد الذات توغل في الهيام حتى وإن أعرضت الذات الأخرى وأظهرت الصدود، ولذا وصف النص الذات بالنفي لما من حقها أن تتصف به من حب وعشق وهيام، /ما إن يبالي تهيمي/ لم يدّر ما بثي/ وما هيماني/ ينفر من قربي/ تخوفته، فاتصاف الذات المحبوبة بالنأي والإعراض سمة بارزة في الشعر العربي، ولذا جعله النقاد من أسباب ارتفاع الهوى، وبلوغ درجة الهيام، فكلما تمنعت المحبوبة كلما ازدادت الذات حبا وشغفا وعشقا وهياما، ففي النص: /ومن إن ناني لم تطب لي لذة/، تصف هذه الجملة سمة بارزة

فيه من توغل في الحب وقضايا النفس، إلا أن الشاعر أصر على هذا الهوى معتبرا أنه لا تراجع عنه مهما بلغ اللاثمون من النقد، ولذا تعددت كلمة الهيام في النص، وكأنه تمارد ولجاجة في الإعجاب به: «أهيم/ هاموا/ أهيم/ هام الفؤاد/ هام الفؤاد/ هام الفؤاد/ تهيام/، في هذه الألفاظ نجد أن الهيام أسند إلى الذات وصفا للحالة الطبيعية المتصفة به، والتي تنافح عنها، كما أسند الهيام إلى اللاثمين ترجيا وتمنيا أن يتصفوا به ليكون ذلك عذرا للذات وتخفيفا من اللوم وتقديرا للحالة النفسية الخارجية عن سيطرة الذات، ذلك ما عبر النص عنه بالتكرار، (هام الفؤاد) الموحى بالاهتمام والإصرار واللجاجة والتماذي، وفي إسناد الهيام إلى الفؤاد سمة سيميائية تجعل الذات غير قادرة على التغيير ولا تستطيع تحمل اللوم،

هام الفؤاد بمن لولا ملاحتها
ما سفت من ذوي الأحلام أحلام
هام الفؤاد بمن من برح ذكرتها
للعين والقلب تهمل وتهيام
هام الفؤاد بخيت الناس بحت بها
إذ في الكناية تلبس وبها
بها تسليت عن ليلى وهند وعن
أسما وسلمى وأشهاد بدا قاموا
راموا أن أسلو خيت الناس إذ جهلوا
ما بي لمن أصعب الأشياء ما راموا
تلك التي من لها مسني لم
باد ومن سقم الأجفان أسقام

تعكس هذه اللوحة الشعرية هوى الهيام كالشهاب المتقد، فلا تنتهي من لفظة إلا وجدت أمامك أخرى، فعبرت الذات في النص عن الهيام معتبرة أنه سبب اللوم الذي هو فعل صادر من الغير، ذلك ما يوضح أن الهيام درجة من الحب ينتقدها الناس، ويلومون من اتصف بها، وذلك لما

من درجات الهيام وعلامات التهيام والتفكر المستمر في المحبوبة، فلا تنعم الذات باللذة ولا النعيم مادام الذهن مربوطا بخيال المحبوبة.

فَأَنْسَتْ فِي صُورِ الْعَيْنِ أَنْسَةً
وَفِي السَّحَابِ مِنْهَا بَرَقَ غَرَاءُ
فَأَنْهَدَ إِذْ ذَاكَ طَوْدَ الْحَلَمِ وَأَنْتَكَّتْ
مِنْ عَرَى الْعَزَمِ لَمَحَ الطَّيْفِ مِنْ رَأِ
حَتَّى هَمَمْتُ بِشَيْءٍ مَا هَمَمْتُ بِهِ
أَزْمَانٍ لَأَقْ بِأَشْكَالِي وَأَكْفَائِي
حَسَنَاءُ هَامَ بِهَا قَلْبِي وَلَا عَجَبُ
كَمْ هَامَ قَلْبُ فَتَى قَلْبِي بِحَسَنَاءِ

الهيام أيقونة سيميائية تعكس درجة الشوق والحنين لدى الذات، وإن ارتباطه بالقلب لسمة بارزة في اندراجه تحت المباحث السيميائية المتعلقة بالأهواء، ولذا نجد أن الذات تتصف بهذه الدرجة الانفعالية حين تعتبر أن الذات الأخرى تستحق أن تهيم بها لما تكتسبه من جمال وحسن فائقين.

فالهيام في المدونة الشعرية تحيط به مجموعة من الأهواء المعبرة عنه، والتي تجعله هوى مركبا من أهواء «بيداتية»، تشكل مجتمعة هوى الهيام في بنيته السيميائية، ومن هذه الأهواء: العجب/الجمال/الشوق/الرغبة/الهموم/العزم، شكلت هذه الأهواء لوحة أيقونية تعبر عن العمق العاطفي، وارتفاع درجة الهوى.

إن النفوس بطبعها تميل إلى الحسن والجمال من كل شيء، وتركن إليه، ففي النص تكثير لهذه الظاهرة لكونها ظاهرة طبيعية، تعبر عن ارتباط عاطفي بين النفوس بسببه الحسن والجمال، ولذا تعد نظرية الجمال من الأوتاد التي بنيت عليها سيميائية الأهواء، لأن النفوس اختلفت في الجمال اختلافا في الأشكال والألوان، ويبقى الميل والركون إلى ما يحسن ويجمّل من المسائل الطبيعية والمعتادة، ففي النص: كم هَامَ قَلْبُ فَتَى

قَلْبِي بِحَسَنَاءِ/ تصور هذه المقولة الشعرية صراع الذات مع العالم الخارجي وهو الموضوع الرئيسي الذي أبرزته سيميائية الأهواء معتبرة أن الذات مؤثرة في العالم الخارجي، ولذا نجد بعض اللمسات السيميائية لهذه المسألة في النصوص، وخاصة في تيمات الأهواء، فلئن شكل الهيام استهجانا في الذوق العامي فإن الذات تعتبره اتجاها إنسانيا جعل للذات الأحقية في التعبير عنه، وهذا ما يحيل إلى أن هوى الهيام ينطوي بداخله هوى اللوم، فهي أهواء تستبطن التفاعل والمشاركة، وذلك ما يجعل الذات فاعلة في النص، ولا يمكن إهمال دورها المحوري في النصوص الأدبية، فأرادت السيميائيات أن تبرز هذا التفاعل بين الذات والعالم الخارجي، فليس الهوى السيميائي سوى جملة من الانفعالات التي تنشأ في السياق التداولي.

يقول سيد محمد ولد الشيخ سيديا: فَهَمْتُ مِنَ الْهَوَى مَعْنَى فَهَمْتُ

وكيف أهيم لولا أن فَهَمْتُ وَمَا فَهَمِي وَتَهَيَّي بِحَوْلِي

سَوَى أَنِّي عَلَفْتُ وَمَا عَلِمْتُ وَعَنْ أَهْلِ النَّمِيمِ كَتَمْتُ مَا بِي

وَأَحْوَالِي تَنَمُّ بِمَا كَتَمْتُ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ نَجْدُ الشَّيْخِ سَيِّدِ

محمد ولد الشيخ سيديا، يستخدم الجنس بين كلمتين هما: /فهمت/ فهمت/، حين أدت الكلمة الأولى معنى الفهم البشري، في حين دلت

الثانية على هوى الهيام، معتبرا أن فهم الهوى يعني تحقق الهيام، هناك ارتباط بين المعجميتين من حيث

التراتب المعنوي، فالهوى مؤثر عام يندرج في ثناياه أيقونات تعبر عن

الميل النفسي، فتؤدي إلى منعرج الانفعال، وبلوغ أقصى درجات الحب والشوق والحنين.

كما تشكل الهوى في هذه الأبيات من خلال ضمير المتكلم المتصف

بالحب والشوق والحنين. بالهيام: فهمت/ فهمت/ علفت/ علمت/

كتمت/ تنم/أحوالي/ ذلك أن الضمير هو صوت القلب المعبر عن الذات، حين تتعاقب عليها آلام الحب، وآمال اللقاء والظفر بالمحبة، فنجد ضمير الذات يؤدي عمله كمرآة لغوية تعكس المشاعر والانفعالات، هذا التعبير عن الحب بضمير الذات ترى الذات في البوح به وإظهاره ووصفه محاطا بالمبالغة اعتزازا ورقة وعاطفة تبعث بين الحروف نغما موسيقيا ورونقا شعريا يجعل المتلقي في حيرة من الإعجاب بالنص.

منزلة الهيام من الحب:

يعد الحب منبعا ومصدرا للعواطف والانفعالات والأحاسيس، إلا أن هذا الحب صار مصطلحا جامعا لكثير من المفردات المؤدية للهيام، فلئن كان النظر واللقاء والحديث عناصر يتولد منها الحب فإنه لا يستقر على حالة واحدة، بل يوجد تباين بين المصطلحات بقدر هيام الذات وارتفاع درجة الهوى، فينشأ عن ارتباط القلب بالمحبيب هوى الشوق والحنين، وبالتوغل في الحب ومواصلة التفكير المستمر في المحبوب، وبالبحث عن طريق اللقاء، وبتفرغ الذات في ذلك تصل إلى مرحلة الهيام، فتكون الذات لا شغل لها غير محاولة الحصول على المحبوب، فتتخذ من مغادرة العالم واتخاذ أساليب العزلة ما يتضمنه هوى الهيام، ولذا يأتي النص وكأنه لوحة فنية تصور ما اشتملت عليه المحبوبة من جمال استحققت به التغزل.

إن ارتفاع هوى الهيام ووصفه بأقصى درجات الحب، يمثل المبدأ الأساسي عند فونتاني في سيميائية الأهواء، وهو مبدأ الشدة، فالانفعال بوصفه المحرك الأساسي للأهواء فإنه يلعب دورا مهما في تحديد درجة الهوى، ومن خلاله يمكن وصف الخطاب الشعري المعبر عن العواطف بلغة

المصادر والمراجع

- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تح: أنس محمد الشامي، زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، تاريخ: 2008.
- ديوان ذي الرمة، تح: د. عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة: 3، تاريخ: 1982م.
- ديوان محمد ولد الطلبة يعقوبي، شرح وتحقيق: محمد عبد الله بن الشيبه، بن أبوه، الناشر: أحمد سالك بن محمد الأمين بن أبوه، المكتبة الوطنية بوزارة الثقافة والتوجيه الإسلامي، انواكشوط، تاريخ: 1419هـ.
- ديوان سيدي محمد ول الشيخ سيدي، جمع وتحقيق: الأستاذ: عبد الله بن محمد بن سيدي، مراجعة: الشيخ إبراهيم بن يوسف بن الشيخ سيدي، د. محمد بن تتنا. الناشر: دار الرضوان، انواكشوط - موريتانيا. ط1، ت: 2018.
- ديوان سيدي عبد الله بن أحمد دام الحسني، جمع وتحقيق: محمد رضوان الله بن محمد سالم/ دار الإسراء، انواكشوط - موريتانيا، ط1/ ت: 2021م.
- أليجيرداس ج. غريماس، جاك فونتيني/ سيميائيات الأهواء، من حالات الأشياء إلى حالات النفس، تر: د. سعيد يقطين، ط1، ت: 2010، دار الكتب الوطنية/ بنغازي/ ليبيا.
- بحوث سيميائية، مجلة علمية محكمة، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر، المجلد 08، العدد: 14، تاريخ: 2019.
- سعيدة بشار/ سيميائيات الانتماء، في رواية الانطباع الأخير لمالك حداد، ط1/ ت: 2019، دار المتقف للنشر والتوزيع.
- مجلة سرود للنقد الأدبي/ العدد الرابع ربيع 2020، (سرد الأهواء)، مختبر السرديات بالدار البيضاء.
- أ. ج. غريماس، سيميائيات السرد، تر: عبد المجيد نوسي، المركز الثقافي العربي.

خاتمة:

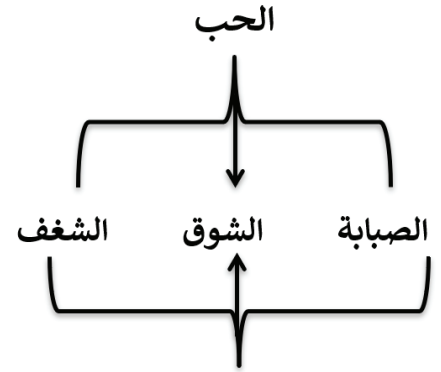
لم يكن الشعر الشنقيطي بدعا من القول، ولم يأت من فراغ، بل هو نتاج ثقافة ورثها الشناقطة عن العرب قديما، ولذا يعد امتدادا لثقافة العرب واتجاهاتهم الأدبية والفكرية، فما تلون به الشعر العربي القديم من أهواء وما عبر عنه من عواطف جاء الشعر الشنقيطي ليضيف إليها من ثقافة المجتمع وقضاياها ما يمثل به الحقبة التي ظهر فيها. إن غرض الغزل مع ما أصابه من معوقات وما أثير حوله من جدل في القطر الشنقيطي، بقي في النهاية ممسكا بعري اللغة، وسالكا جميع طرقهم في التعبير عن مواضيعه، والتنغيم بعواطف الذات، فجاء الحب لأبسا كافة المراحل الأهوائية التي عبر عنها قديما، إلى أن وصل إلى المرحلة القصوى الممثلة لأعلى درجات الحب، وهي الهيام.

إن وجود هوى الهيام في الشعر الشنقيطي يعني أن الثقافة العربية عصية على التغيير والتبديل، ذلك ما تريد سيميائية الأهواء أن ترسخه من خلال مفاهيمها وقواعدها النقدية، لأن القضايا النفسية ثابتة بقدر ثبات الإنسانية، وعامة مع اختلاف الأزمنة والأديان.

وفي الأخير فإن كل القضايا النقدية المنطبقة على الشعر العربي يمثلها الشعر الشنقيطي، وذلك لما انطوى عليه من فصاحة لغوية، وعاطفة صادقة، ومعان سامية، وتلك من أسمى مقومات الهوى السيميائي.

تصويرية إيحائية، هذه الصورة الإيحائية هي السبيل الذي يسلكه المتلقي لفهم الدلالات التي يتكون منها النص، وبهذا يتحول إحساس الذات من الغموض إلى التجلي، إن كثرة المصطلحات الدالة على الحب في اللغة العربية، تعبر عن مراحل نفسية تنتاب الذات، لكل مرحلة منها مصطلح معين، ويمكن أن نرسم خطاطة سيميائية بأهم هذه المصطلحات وأكثرها رواجاً في الشعر الشنقيطي، يقول: سيد عبد الله ابن أحمد دام الحسني:

يُنَازِعُنِي كَأَسَا مِنَ اللّٰهُ دُونَهَا
لَدَيَّ ارْتِبَاشُ الرَّاحِ فِي كَفِّ كَاعِبِ
سَلَامٌ عَلَيْهَا مِنْ لَيَالٍ وَغَزَلَةٍ
وَعَهْدٍ وَأَسْقَى الْغَارَ غُرَّ السَّحَابِ
مَتَى يَبْكُ أَيَّامَ الصَّبَا ذُو صَبَابَةٍ
فَلَيْسَ لِمِثْلِ الْغَارِ فِيهَا بِنَادِبٍ⁵



الهيام

تتصل هذه المصطلحات بالقلب الذي هو منبع الأحاسيس أكثر من غيرها، ولذا ننتقل من الحب كمفهوم مركزي إلى دلالات فرعية تتسع من خلالها مساحة القول عند الشعراء، وإن اختلفت درجاتها.

ويظل هوى الهيام هوى سيميائية، يوغل في الغرام وتتصف الذات من خلاله بالهوس والجنون العاطفي، ذلك ما جعله يندرج في قائمة الأهواء «الباتيمية» التي اقتصت بها سيميائية الأهواء بعد انتقال البحث السيميائي من الفعل إلى الهوى، فبرز دور الذات وتأثيرها في العالم الخارجي.

5 - ديوان سيدي عبد الله بن أحمد دام الحسني، جمع وتحقيق: محمد رضوان الله بن محمد سالم/ دار الإسراء، انواكشوط - موريتانيا، ط1/ ت: 2021م، ص: 130



الدكتور عطاء الله الأزمي
أستاذ بالمركز الجهوي لمهن التربية
والتكوين الدار البيضاء \ المملكة المغربية

«البعد التراثي في الكتابة الدرامية»

ملخص:

نعرض في الشق الثاني من القسم النظري لهذه الدراسة، لتلمس القواعد الفنية الأولى وسبل ترسيخها، عبر تأسيس الفرق المسرحية وبوادر التأليف المسرحي المستلهم للتراث خاصة، قبل أن نقدم، في القسم التطبيقي من العدد القادم بحول الله، قراءة في بعض النصوص المسرحية التي تؤرخ لمرحلة ما قبل الاستقلال، لنخلص إلى إبراز أهم مقومات الكتابة الدرامية لدى جيل التأسيس في مسرح ما قبل الاستقلال، سواء على المستوى الموضوعاتي، أو على المستوى الفني

(ب) تلمس القواعد الفنية الأولى وترسيخها:

1- بوادر التأليف المسرحي:

يعد الحديث عن بوادر التأليف المسرحي موضوعا شاسعا مترامي الأطراف، ذلك أن مختلف البلدان العربية، ومن بينها المغرب، دأبت زمنا طويلا على انتهاج طريق الترجمة والاقتباس عن الريبورتوار العالمي، وإن كانت بعض إنتاجاتهم قد صنفت في باب التأليف، وما هي إلا اقتباسات مثل مسرحية « الحياة فداء الغرام » لنجيب الحداد، والمقتبسة عن «روميو وجولييت » أو مسرحيته الرائدة « صلاح الدين الأيوبي » والتي اقتبسها عن رواية «التعويذة » لوالتر سكوت. وكذلك الشأن بالنسبة لبعض المسرحيين المغاربة الأوائل، الذين كتبوا مسرحيات في تلك الفترة المبكرة معتمدين على التراث أو التاريخ العربي، أو على قصص ومسرحيات مشرقية، ونسبوا لأنفسهم كأنها من تأليفهم، باستثناء كتاب معدودين، من بينهم الأديب المناضل محمد القري الذي ألف مسرحيات مستلهما فيها الوضعية التي كان يعيشها بلده.

إن تأسيس الفرق المسرحية، فتح عهد التأليف المسرحي بالمغرب، حيث قام بعض أعضاء هاته الفرق، بعد تجريبيهم لأسلوبي الترجمة والاقتباس، بمبادرات

فردية وجماعية في مجال الكتابة المسرحية، نستطيع القول إنها كانت متزامنة مع هذين الأسلوبين ومتلازمة معهما. إذ علاوة «عن المسرحيات المترجمة أو المقتبسة التي اهتدى إليها الشبان المغاربة الرواد في عالم المسرح ما بين أواخر العشرينيات وطيلة الثلاثينيات وما بعدها من القرن العشرين الميلادي، كانت هناك، خلال تلك الفترة الزمنية، محاولات واجتهادات في الكتابة المسرحية التأليفية»¹.

ويشير الدكتور محمد الكفاط، إلى أنه: «إذا كانت الفرق المسرحية قد اتخذت النموذج الغربي كنموذج لها، فإن الفرق المغربية اعتمدت على المسرحيات الشرقية المتأثرة بالغرب، ثم اتصلت مباشرة بالمسرحيات الغربية والفرنسية بصفة خاصة، والمولييرية بصفة أخص. وربما كان للصلة بين النموذجين الشرقي والغربي أثر في توجيه المغاربة الأوائل نحو المسرح الفرنسي»².

لذلك، لم ينطلق الرواد الأوائل غيضا من فيض، بل وجدوا أمامهم نماذج مسرحية مشرقية معتمدة بدورها على مسرحيات غربية. ولا غرابة في ذلك، ما دام مجال الكتابة المسرحية قد أسس منذ القدم على أسس التلاقح بين الأمم والشعوب، في إطار مبدأ تلاقي الحضارات والثقافات والمعارف. فتأثير المسرحيات الشرقية على الكتابات

1 - عبد الله شقرون: « الثقافة المسرحية »، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى (دجنبر 2000)، ص. 125، 126.
2 - محمد الكفاط: « بنية التأليف المسرحي بالمغرب من البداية إلى الثابتات »، ص. 78.

وقد عملت هاته الورشات على ترسيخ قواعد التأليف الدرامي، من خلال التقنيات الآتية:

1- إشراك كل من الممثل والمخرج في عملية التأليف، وهي ما اصطلح على تسميتها بالكتابة المباشرة؛
2- نسخ الحوارات التي كان المتدربون يبتكرونها أثناء ارتجالهم، من أجل الوصول إلى المشاهد، وهي تقنية الارتجال؛

3- اعتماد التراث الشعبي المحلي وفق مواضيع واختيارات مشروطة، تدعم وجود الحماية وتساندها؛

4- إيجاد كتابة مسرحية نوعية، تجمع بين الأصالة والمعاصرة، من خلال عملية البحث، والتصنيف، والتبويب، والتنقيب، داخل التراث العالمي والعربي معا.

كما كان لهذه الورشات الفضل في إكساب عدد من المؤلفين (أمثال د. أحمد الطيب العليج و د. الطيب الصديقي)، القدرة على ممارسة الكتابة الدرامية، وإغناء المكتبة المسرحية المغربية.

ومن بين المسرحيات التي أنتجتها ورشة التأليف المسرحي: «عميل جحا»، «المعلم عزوز»، «الشطاب»، «عمي الزلط»، وغيرها.

يقول د. عبد الرحمان بن زيدان: «ساهمت التداريب التي أشرف عليها أندري فوازان في ترسيخ الاهتمام بالتأليف المسرحي، وساعدت على رسم أفق الكتابة المسرحية التي تعرف كيف تبني كيانها وفق خصوصيات الكتابة الدرامية، اعتمادا على التراث الشعبي المحلي، وهو ما كرس شكل ممارسة واضحة المعالم في التأليف وفي الإخراج (...) في الوقت الذي كان المسرح المغربي الوطني قبل الاستقلال يسير بالتأليف المسرحي نحو عروبته وقوميته ومواضيعه الوطنية، كان المسرح الشعبي يتأسس بالتدريج

و ضد مشاريعه الاستلابية التي سعت إلى تدمير خصوصية الشعب المغربي.

وكان بذهيا أن تنحو مختلف الفرق المسرحية المندحة نفسه، بوصف التجربة واحدة متمثلة في النضال من أجل استقلال المغرب وتحرره الوطني، وهذا «ما جعل الوعي السياسي والديني والفني، في هذه المرحلة (1912 - 1956) كوعي جماهيري يمثل القوة التي كانت تمارس نفوذها على العملية التاريخية، وتدفع إلى الفعالية والممارسة»³.

ورغم أن مباريات التأليف المسرحي لم تساهم في تحقيق انتعاشة كبرى لحرية التأليف خلال هاته الفترة، فإنها قد رسخت - في المقابل - تقليدا للكتابة الدرامية، سيكون نواة للطفرة النوعية التي سيعرفها المسرح في مرحلة لاحقة.

ومهما يكن، فقد «بذل أولئك الرواد المغربية جهدا جهيدا في محاولة تكوين رصيد مسرحي لمجموعاتهم، وحاولوا بالتالي أن يكونوا في مستوى المؤلفين العرب وغير العرب الذين شاهدوا لهم نماذج من إنتاجاتهم، وأرادوا تقليد الشكل المتبع في تأليف المسرحيات»⁴.

ولا ننسى في هذا المقام، الإشارة إلى المركز المغربي للأبحاث المسرحية / الدرامية بالمعمورة بالرباط (تأسس سنة 1953)، الذي كانت وزارة الشبيبة والرياضة تنظم به مجموعة من التداريب الوطنية لفائدة ثلة من المهتمين بالمجال الفني عامة، والمسرحي على وجه الخصوص، بتأطير من خبراء فرنسيين كان أبرزهم أندري فوازان، حيث تم تنظيم ورشات على شكل محترفات (Ateliers)، تضمنت التشخيص والإخراج وتقنيات المسرح والكتابة.

المسرحية الأولى أمر واقع، سواء على مستوى التأليف والشكل المسرحي عموما، أو على مستوى التقنيات والأداء، وطرق التشخيص والتبليغ.

ومع ذلك، ظلت الرغبة ملحة عند المسرحيين المغاربة في إبداع مسرحيات مغربية خالصة، فظهرت مباريات التأليف التي كان الإعلان عن ميلاد أولها من لدن «جمعية قدماء المدرسة الثانوية الفاسية» خلال سنة 1929، تغيت منح الراغبين في المشاركة فرصة الإسهام خدمة للفن المسرحي، وتزويد الفرق المسرحية والخزانة المغربية بإنتاجات مسرحية محلية، مع ترك الحرية للكتاب في معالجة المواضيع التي يقترحونها، تراجيدية كانت أم هزلية.

وقد شهدت هاته المباراة متابعة صحافية انفرادية واستثنائية، من لدن الصحف والمجلات في تلك الفترة الزمنية المبكرة من تاريخ المسرح المغربي، حيث طرحت قضايا من قبيل العلاقة بين المسرح والأدب، ومفهوم رجال المسرح للآداب، وارتباط منزلة الأدب بقيمة إنتاجات رواده وإبداعاتهم.

ويمكن القول بأن هاته التجارب الأولى كانت مستمدة من النماذج المسرحية الشرقية والمغربية، كما كان أغلبها معتمدا على الخطابة والسرد التاريخي، ملتزما بالقضايا الوطنية والمواضيع ذات البعد التراثي والتاريخي، لحدثة هاته التجارب أولا، ولتضييق الخناق عليها ثانيا من لدن المستعمر الفرنسي، الذي وقف بالمرصاد لكل المحاولات الجادة التي تنمي وعي المواطنين، وتؤجج مشاعرهم خدمة لل قضية الوطنية، فأضحى المسرح يشكل واجهة أساس لخدمة الحركة الوطنية، وللنضال ضد المستعمر،

3 - عبد الرحمان بن زيدان: «مقاومة في المسرح المغربي»، (سلسلة دراسات تحليلية 6)، دار النشر المغربية، الدار البيضاء (1985)، ص: 47.
4 - عبد الله شقرون: «الثقافة المسرحية»، ص: 128.

التي وضع لها الفرنسيون اختيارات مشروطة بوجودهم في المغرب»⁵. وبهذا، نستطيع أن نتحدث عن ورشتين للتأليف الدرامي بلورتهما الحركة الوطنية والوجهة النضالية للرسالة المسرحية:

(1) الورشة العلنية:

التي تدعمها الحماية، وتؤسسها كرد فعل على الاتجاه النضالي للمسرح الوطني؛

(2) الورشة السرية:

التي جعلت التأليف الدرامي قضية وطنية، فعمل المؤلف الدرامي فيها لا يختلف عن عمل المقاوم في معركة التحرير.

يقول د. محمد الكفاط: «إذا كان المسرح المغربي لم ينعم بالحرية إلا فترة قصيرة، وهي الفترة التي تمتد من سنة 1923 إلى سنة 1934، وهي حرية نسبية، فإنه مع ذلك ظل طيلة فترة الحماية ملتزما بالقضايا الوطنية، وببشر الوعي في صفوف الجماهير مباشرة كلما وجد إلى ذلك سبيلا، وبإلحاح على الرقيب إذا لم يجد وسيلة غيره، وبذلك ضمن لنفسه البقاء كفن لا ينقرض وإنما يتكيف ويتأثر ويؤثر ويتطور ويستمر»⁶.

إذن، فالتأليف المسرحي في طور تكوينه، تجاذبته نزعتان: نزعة استعمارية: تجعل من المسرح سلاحا تضليليا ينأى بالوجدان المغربي عن قضيته الأولى؛ ونزعة نضالية: تصدت لهذا الخناق بواسطة مبدأ «التقية الفكرية»، الذي يستلهم الرمز كوسيلة للتعبير عن الفكر النضالي، وعن الرؤيا السياسية والاجتماعية الداعية إلى التغيير، فأصبح المسرح يمتح من

المواضيع التاريخية الإسلامية. وفي إطار هذا الصراع، نبت مسرح جدي ومتين، علاوة عن اتخاذ متعة أدبية، بل ساهم في نهضة وطنية ثقافية وفكرية، وشكل الأعمدة التي سيقوم عليها صرح المسرح المغربي على امتداده.

2- الترجمة والاقتباس:

لا شك أن التحديد المصطلحي، والتدقيق اللغوي والمفاهيمي، يجلي الكثير من الغموض والتعارض، أو التقارب والتباين، بين المصطلحات والمفاهيم المتداولة، سواء في الحقول الأدبية والمعرفية بوجه عام، أو في الحقل الفني على وجه الخصوص.

1/2- الاقتباس (Adaptation):

جاء في «لسان العرب»، فصل «القاف»: «قبس: القبس: النار. والقبس: الشعلة من النار، واقتباسها الأخذ منها (...) وكذلك اقتبست منه نارا، واقتبست منه علما أيضا أي استفدته. قال الكسائي: واقتبست منه علما ونارا سواء، قال: وقبست أيضا فيهما. وفي الحديث: من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر. وفي حديث العرياض: أتيناك زائرين ومقتبسين أي طالبين العلم، (...) وأتانا فلان يقتبس العلم فأقبسناه أي علمناه»⁷. وفي معجم «مصطلحات الأدب»: «الاقتباس هو إعادة سبك عمل فني لكي يتفق مع وسيط آخر، وذلك كتحويل المسرحية إلى فيلم أو القصة إلى مسرحية»⁸. أما في «معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب» فمصطلح الاقتباس يعني «إدخال المؤلف كلاما منسوباً

للغير في نصه، ويكون ذلك إما للتحلية أو للاستدلال، على أنه يجب الإشارة إلى مصدر الاقتباس بهامش المتن وإبرازه بوضعه بين علامات تنصيص أو بأية وسيلة أخرى»⁹. وفي قاموس «المنهل»¹⁰ تدل كلمة (Adaptation) على الاقتباس الذي يفيد التكيف، ونقل نتاج أدبي إلى المسرح أو السينما، أما الذي يقوم بعملية الاقتباس فتطلق عليه تسمية Adapteur أي المكيف أو الموفق أو المقتبس.

في حين نجد كلمة (Adaptation) في «المعجم المسرحي: مفاهيم ومصطلحات المسرح وفنون العرض»¹¹ تعني الإعداد بالمعنى الواسع للكلمة، إذ يعد عملية تعديل تجري على العمل الأدبي أو الفني من أجل التوصل إلى شكل فني مغاير يتطابق مع سياق جديد، وتشمل تسمية الإعداد مختلف العمليات التي تتراوح بين التعديل البسيط لعمل ما، وبين عملية إعادة الكتاب بشكل كلي مع الحفاظ على الفكرة، وهذا ما يطلق عليه بالعربية اسم الاقتباس (...) ويقوم الإعداد في المسرح على تعديل أو تحويل نص غير درامي إلى نص درامي، وذلك من خلال تحويل مادة سردية (حكاية أو أسطورة أو رواية أو واقعة) أو مادة وثائقية (مذكرات، وثائق) أو غيرها، بحيث تقدم على شكل أفعال وحوارات (...) كما أن الاقتباس هو أخذ الخطوط الرئيسية للحكاية أو الفكرة، وخلق مواقف جديدة مختلفة تماما.

وإذا عدنا إلى (Dictionnaire du théâtre) لمؤلفه Patrice Pavis، فكلمة (Adaptation)

5 - عبد الرحمان بن زيمان: «مرجعيات التأليف المسرحي في المغرب: المطلق والأفق المسدود»، موقع إلكتروني: http://www.benzidaneabderdra.hmane.ma/ECRIT_URE_maroc.html، ص: 4.

6 - محمد الكفاط: «نبذة التأليف المسرحي بالمغرب من البداية إلى الثمانينات»، ص: 99.

7 - ابن منظور الإفريقي المصري: «لسان العرب»، المجلد السادس، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت (بدون تاريخ)، ص: 167.

8 - مجدي وهبه: «معجم مصطلحات الأدب»، مكتبة لبنان، بيروت (1974)، ص: 35.

9 - مجدي وهبه وكامل المهندس: «معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب»، مكتبة لبنان، بيروت (1979)، ص: 34.

10 - سهيل إدريس: «المنهل» (قاموس فرنسي عربي)، دار الآداب، بيروت، الطبعة الثانية والثلاثون (عام 2004)، ص: 36.

11 - ماري إلياس وحنان قصاب حسن: «المعجم المسرحي: مفاهيم ومصطلحات المسرح وفنون العرض» (عربي - إنجليزي - فرنسي)، مكتبة لبنان ناشرون، طبعة أولى (1997)، ص: 44، 45، 46.

نتصور صيرورة الترجمة المسرحية، علينا أن نسائل في الآن ذاته مؤرخ الترجمة والمخرج أو الممثل، والتأكد من تعاونهم، وإدماج فعل الترجمة الذي هو أكثر اتساعا من إخراج نص درامي.

ونعد أن الترجمة هي نقل نص درامي من لغة أجنبية إلى اللغة العربية، مع المحافظة الضرورية على أسماء الشخصيات، والمواقف، والأحداث، والزمان والمكان والإرشادات المسرحية، إن وجدت.

كما يحدث كثيرا، عند تقديم نص مسرحي مترجم، أن يلجأ المترجم، أو المعد، إلى تعديل الأسماء وطبيعة الشخصيات والمكان، أو السياق بأكمله، لهذه الغاية. وفي هذه الحالة، يحول النص عبر الترجمة إلى اللغة النثرية، أو يترجم شعرا، مع ما يفترضه ذلك من تصرف.

وإذا استقرنا صيغ تداول مفهومي الاقتباس والترجمة في المسرح المغربي، سنجد أنهما قد استعملتا متجاورين لمصطلحات ومفاهيم أخرى، كالتقريب، والمغربة، والتعريب.

فكلمة التقريب في المسرح المغربي، وظفت كلما تعلق الأمر بإخضاع النص المنقول لثقافة المقتبس، والسعي نحو تحويله حتى يصبح قريبا من الجمهور المغربي.

في حين استعملت كلمتا التعريب والمغربة، كلما تم التأكيد على لغة النص المنقول. فالمغربة تشدد على استعمال العامية، في حين ينص التعريب على استعمال اللغة العربية الفصحى داخل عملية تحويل النص المسرحي، ومحاولة تقريبه إلى البيئة العربية.

أما مصطلح الترجمة، فمعانيه تتباين بين النقل الحرفي للنص

جعل النص المقتبس متلائما ومتكيفاً مع الوضع الجديد. هاته الملاءمة وهذا التكيف هما اللذان أديا إلى وجود كلمات من قبيل التمهيد، والمغربة، والتونسية، واللبننة، وغيرها.

2/2 - الترجمة:

ورد في «لسان العرب»، في باب (رجم): «الترجمان والترجمان: المفسر، وقد ترجمه وترجم عنه، وهو من المثل الذي لم يذكر عند سيبويه. قال ابن جنبي: أما ترجمان فقد حكيت فيه ترجمان، بضم أوله (...)» ويقال: قد ترجم كلامه إذا فسر به لسان آخر، ومنه الترجمان، والجمع التراجم»¹⁴.

وفي «معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب» نجد الترجمة، النقل (TRANSLATION) تعني: «إعادة كتابة موضوع معين بلغة غير اللغة التي كتب بها أصلا. ومع قدم الترجمة قدم الأدب نفسه هناك جدل مستمر بين من يرون فيها التقيد بالأصل حرفيا، ومن يرون التصرف، ومن يرون عدم الجدوى في الترجمة لمن يريد أن يتذوق الأثر الأدبي على الوجه الصحيح، ومن يرونها ضرورة لا بد منها في نشر القيم الثقافية العالمية»¹⁵.

وتقابل كلمة (Traduction) في قاموس «المنهل» نقل وترجمة، وكذا قولنا (La traduction de la pensée de qqn) أي تفسير أفكاره¹⁶.

أما Patrice Pavis¹⁷ فيتناول في تعريفه الترجمة المسرحية (Traduction théâtrale)، موضحا أن إنصاف نظرية الترجمة المسرحية (...) يستلزم أخذ وضعية التلفظ بعين الاعتبار. ولكي

عنده، هي عملية تنقيح وتغيير عمل أدبي أو جنس إبداعي من شكل لآخر، كأن نحول رواية إلى مسرحية أولا، وكونه اشتغالا دراماتوريا انطلقا من نص مسرحي ثانيا، وعدّه ترجمة أو نقلا وفيما إلى حد ما ثالثا، حيث يستعمل الاقتباس غالبا بمعنى الترجمة (Traduction)، مما يصعب عملية رسم حدود بينهما. ويميز باتريس بافيس في الأخير بين مصطلحي (Traduction و Adaptation)، حيث تنقيد الترجمة بالنص الأصلي، في حين يشتغل الاقتباس في فضاء أرحب.

ويفهم من كلام (Pavis)، أن مصطلح الاقتباس مرتبط بالفن الدرامي أكثر من سواه، ويقصد به الإعداد المسرحي، أو ما اصطلح عليه بالعمل الدراماتيوري بوجه من الأوجه، كما قد يعني حرية «المؤلف الثاني» في تقديم تأويلات وتحويلات نصية متعددة للعمل الأصلي.

وهناك من يعد الاستنابات (Transplantation)¹³ اقتباسا، بحجة أن هناك نصوصا تقتبس لتصبح «استناباتا»، أو انصهارا في النصوص الأصلية.

وقد يكون الاقتباس من لغة أجنبية إلى اللغة العربية، أو من اللغة العربية نفسها، دون تقيد إجباري بأسماء شخصيات النص الأصلي الذي قد لا يكون دراميا، إذ أن ما يبقى من النص الأصلي هو إطاره العام. وبناء عليه، يعد الاقتباس تصرفا وتحويلا للنص الأصلي، بهدف ملاءمته مع وضع جديد، قد يكون سياسيا أو اجتماعيا.

إن الاقتباس إعداد، وليس ترجمة أو تأليفا، والدوافع إليه متعددة، ومن أسسه مبدأ الملاءمة، أي محاولة

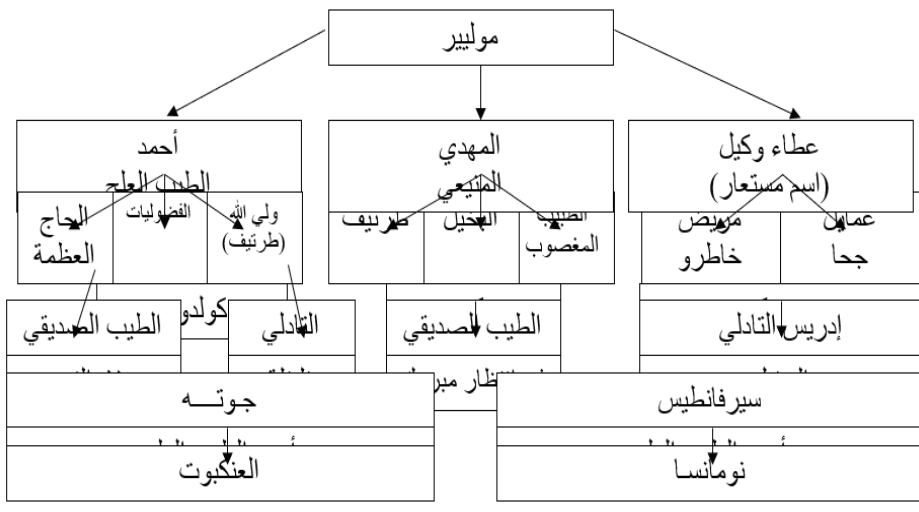
13 - أحمد بلخيري: «المصطلح المسرحي عند العرب»، الوكالة للطباعة والنشر والتوزيع، القنيطرة، الطبعة الأولى (1999)، ص.ص. 168، 169.

14 - ابن منظور، «لسان العرب»، المجلد الثاني عشر، ص. 229.

15 - مجدي وهبه وكامل المهندس: «معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب»، ص. 54.

16 - سهيل إدريس، «المنهل»، ص. 1216.

17 - Patrice Pavis: «Dictionnaire du théâtre», pp: 384,385.



دون التصرف فيه، بحيث يصبح تطابقاً حياً للنص الأصلي المنقول من لغة أخرى معنى وأسلوباً، وبين النقل الذي يترك بصماته واضحة على النص الأصلي بواسطة التحوير والتصرف.

فما هي أنسب الدلالات إلى
نصوصنا المسرحية المغربية
المنقولة عن الشرق أو الغرب؟

يقدم الدكتور محمد الكفا¹⁸ حكما واضحا في ذلك، حينما يقر بأن كلمة الاقتباس هي أقرب المعاني التي يمكن أن نحكم بها على النص المغربي المنقول عن الغرب أو الشرق، وذلك بالنظر إلى أسلوب النقل ووسيلته التي اعتمدت عنصر التقريب والتعريب والمغربة، وكذا وسيلة التحويل والتحوير.

إن هذا الحديث عن المسرح المغربي، يجد حاجته الملحة في التلاقح الثقافي بين الحضارات والشعوب، ويتولد صداه ملحا داخل التجربة المسرحية المغربية، وهي تتعرعر وتنشأ في حضان الاقتباس والترجمة. وبهذا، كان الاقتباس والترجمة النبتة التي زرعتها هاته التجربة في بدايتها، وسعت إلى احتضانها وتخصيبها، مع مراعاة ووفرة إنتاجية وإبداعية.

وقد قدم د. محمد الكفاط مقارنة إحصائية للنصوص المقتبسة، وعيا منه بضرورة إجراء نقد مصاحب للظاهرة.

ونقدم هنا نماذج لبعض المسرحيات
المقتبسة وأصحابها المقتبسين،
والمقتبس عنهم¹⁹:

ووضع المفارقات، مع أسلوب الضحك الساخر.

(ب) مدرسة ما بعد الاستقلال:
التي جعلت الاقتباس ضرورة
فنية، وإجراء تقنيا تجريبيا،
ينقلنا إلى عالم الإبداع والتأصيل،
فكانت تجربتنا أحمد الطيب العلي
والطبيب الصديقي رائدتين في مجال
الاقتباس، وقد كانت «عملية المغربية
التي انخرط فيها العلي والصديقي،
صيغة متقدمة (...) خاصة أنها
قربت النص المسرحي الأجنبي من
السياق المغربي عن طريق إضفاء
ملامح مغربية على شخصيتها
ووقائعها ولغتها، وأيضا عن طريق
إسقاط مقاطع منها وإضافة أخرى

إن إدراج الأستاذ الطيب العليج في مجال الاقتباس، جاء نتيجة القفزة النوعية التي قدمها في الخمسينات والستينات من القرن العشرين، وهو يسعى نحو تحويل النصوص المسرحية العالمية، وتغييرها، ومغربتها، بشكل يجعلها متجاوبة مع المتلقي المغربي.

لكن أهم سمة وصفت بها مدرسة ذ. أحمد الطيب العليج في الاقتباس، هي الوله بمسرحيات مولير، حتى عده

وإذا ما استقرأنا هاته المقاربة
الفقدية للظاهرة، سنقف على
مدرستين للاقتباس:

أ) مدرسة حيل الرواد:

التي اعتمدت الاقتباس كوسيلة تأسيس مرحلية، تجعل المسرح المغربي يطلع على اللعبة الدرامية، ويفتح آفاقها المعرفية، ويعمل على تخصيبها داخل الثقافة المغربية، بواسطة الترجمة المباشرة للروائع المسرحية العالمية.

وكانت أكثر القضايا ارتباطا بالركح، القضية الاجتماعية، وأكثر المسرحيات ارتباطا بالمسرح المغربي، مسرحيات موليير، وذلك راجع لأسباب ودوافع نابغة من ظروف تاريخية مرحلية، نجملها في ما يأتي:

1- عالمية شخصية مولير،
وقابليتها للانصهار والذوبان ضمن
ثقافات مختلفة؛

2- ارتباط مسرحيات موليير بالقضايا الاجتماعية التي تناسب المجتمع المغربي، كقضية الشعوذة والدخل؛

3- نمط الشخصيات المولييرية التي تعمل على تأجيج الصراع الدرامي،

18 - محمد الكفاط: «بنية التأليف المسرحي، بالمغرب من البداية إلى الثمانينات»، ص.ص. 43، 44.

19 - المرجع نفسه، ص.ص. 45، 46، 47.

20 - حميد أتاباتو: «المسرح الاحياء في المغرب: الهوية والتباسات الانتساب»، Publisud، الطبعة الأولى (2004)، ص: 101.

عبر مواصفات فعل مسرحي له خصوصيته العربية، ظهرت بعض المبادرات الدرامية التي تحدوها رغبة ملحة في خلق المغامرة وابتداع أشكال جديدة تمتد جذورها في التراث العربي، كما تلتقي في بعض وجوها مع معطيات المسرح الغربي²².

ومن ثم، طرحت إشكالية الانعتاق والانفتاح والتأصيل، وتحقيق الذات وصيانتها، أسئلة مختلفة ومتباينة²³، من قبيل:

* كيف يمكن للمسرح أن يطرح علاقته بالمجتمع المغربي؟

* كيف يمكن للمسرح أن يتمثل الهوية المغربية مسرحيا؟

* كيف يمكن للمسرح أن يتموقع من إشكالات الذات والآخر والأزمة

والتبعية والمؤسسة والهامش؟

* كيف يمكن للمسرح بالمغرب أن يطرح موقفه الإنساني والقومي والوطني؟

* كيف يمكن للمسرح بالمغرب أن يصوغ قضايا الفكرية والجمالية؟

* كيف يمكن للمسرح أن يتعامل مع سؤال المرجعية؟

ومن هذا المنطلق، نتساءل عن خصوصية التأليف الدرامي في هذه الفترة، وعن صور بنائه.

وتوخيا للدقة والموضوعية العلمية، ارتأينا أن نخصص - في الشق الثاني والأخير من هاته الدراسة - قراءة تطبيقية لنماذج من النصوص المؤلفة لهاته الفترة، رغم غنى المكتبة المسرحية قبل الاستقلال بالمقتبسات، إذ أن بعض الرواد قد ضاقوا ذرعا بالاعتماد المفرط على المسرحيات المشرقية، فسعوا إلى خوض غمار التأليف بإنتاجات مسرحية، مثل: «انتصار البراءة» لمحمد الزغاري، و«الرشد بعد الغي» و«المنصور الذهبي»



الرقابة الذي فرضته ظروف الحماية، فجاء نص الآخر منفذا طبعيا لنصنا الجاد بعد أن انتهت مدة صلاحيته النقدية، ذلك «أن النصوص التي ترجمت أو اقتبست قبل الاستقلال كان أصحابها يخفونها عن عين الرقيب»²⁴.

3- ندرة التأليف الدرامي. إذا كانت هذه الأسئلة كذلك، فإنه مباشرة بعد الاستقلال، سيصبح التأليف والتأصيل معبرين عن سؤال ملح، ومطلب جوهري، لتقديم إنتاج مغربي صميم، يعكس البيئة المحلية، ويجسد تطلعاتها وهمومها، ويتحرر من التبعية.

ولقد نبغ السؤال التأصيلي من دافع الرغبة في تحقيق التماهي بين جنس من الفنون، غريب عن جسم هذه الأمة، وبين خصوصياتها. يقول الدكتور حسن المنيعي: «بناء على هذا التأرجح المأسوي بين إنجازات الآخر وطرح إمكانية إثبات الذات

د. محمد الكفاط موليير المغرب، اقتداء ببيعوب صنوع، الذي لقب بموليير مصر.

أما مدرسة الأستاذ الطيب الصديقي، فجاءت أكثر رصانة، لأنها نابعة من ثقافة عالمية وإلمام واسع بالمسرح، فكان الاقتباس إبداعا وموهبة خلقة، وإعدادا للجمهور المغربي حتى يتقبل الأعمال المسرحية العالمية، من خلال تجربة المسرح العمالي المؤودة أو المعطلة، وتجربة المسرح البلدي التي خلقت عمق التجربة الإبداعية، وشساعتها. وإذا كانت أسئلة الاقتباس عند المدرسة الأولى ظاهرة صحية نابعة من الظرف التاريخي وسؤال المرحلة، حيث استجابت لدوافع متعددة، نذكر منها:

1- سد الفراغ الثقافي وفتح باب الاطلاع على الفن الوافد وكشف خباياه؛

2- الهروب والانسحاب من واقع

21 - محمد الكفاط: «بنية التأليف المسرحي بالمغرب من البداية إلى الثمانينات»، ص: 72.
22 - «التأصيل في المسرح الغربي من خلال حركة النص» (النص الاحتفالي نموذجاً)، للدكتور حسن المنيعي، مجلة الوحدة، عدد مزدوج 94/95، يوليو أغسطس 1992، ص: 72.
23 - مجلة «ضفاف»، العدد السابع، (مايو 2004)، ص: 3.



* « صفحات دراسية من القديم والحديث », دار الثقافة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى (1976)؛
* « الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها » (الجزء الأول)، منشورات مكتبة المعارف، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية (1982).

– محمد أديب السلاوي:

* « المسرح المغربي من أين وإلى أين », وزارة الثقافة، دمشق (1975)؛

* « المسرح المغربي : البداية والامتداد », دار وليلي للطباعة والنشر، مراكش، الطبعة الأولى (1996).

– عبد القادر السميحي: « نشأة المسرح والرياضة في المغرب », مطبعة المعارف الجديدة، الرباط (1986).

– عبد الله شقرون:

* « فجر المسرح العربي بالمغرب », منشورات اتحاد إذاعات الدول العربية، مطبعة شركة فنون الرسم والنشر والطباعة، تونس (1988)؛
– محمد عزام: « المسرح المغربي » (دراسة)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق (1987).

– محمد الكفاط:

* « بنية التأليف المسرحي بالمغرب من البداية إلى الثمانينات », دار الثقافة، الدار البيضاء (1986)؛

* « المسرح وفضاءاته », البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع، القنيطرة، الطبعة الأولى (1996)؛

– عبد الله كنون، « أحاديث عن الأدب المغربي الحديث », دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الرابعة (1405 هـ) (1984).

– حسن المنيعي:

* « آفاق مغربية » (مجموعة مقالات عن الأدب والفن)، المطبعة الوطنية، مكناس (نوفمبر 1981)؛

لمحمد بن الشيخ، و«الأوصياء» لمحمد القري، و«الانتقام» لمحمد السراج، و«قف أيها المتهم» لعبد الواحد الشاوي، وكذا مسرحيات: «اليتيم المهمل والثري العظيم أو العلم ونتائجه» لمحمد القري، و«الوليد بن عبد الملك» لمحمد الحداد، و«انتصار الحق بالباطل» لعبد الخالق الطريس، وهي النماذج التي اخترناها لدراستنا التحليلية في الشق الأخير من هاته الدراسة.

المصادر والمراجع:

أ. الكتب العربية:

– حسن بحراوي: « المسرح المغربي : بحث في الأصول السوسيوثقافية », المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، الطبعة الأولى (1994).

– عبد القادر البدوي، « دفاعا عن المسرح المغربي », منشورات البدوي، مطبعة دار المناهل للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى (مارس 1996).

– مصطفى بغداد، « المسرح المغربي قبل الاستقلال », منشورات الرهان الآخر، مطبعة دار القرويين، الدار البيضاء، الطبعة الأولى (ماي 2000).

– عبد الرحمان بن زيدان:

* « من قضايا المسرح المغربي », مطبعة صوت مكناس، مكناس (1978)؛

* « كتابة التكريس والتغيير في المسرح المغربي » مطبعة إفريقيا الشرق الدار البيضاء (1985)؛

* « المقاومة في المسرح المغربي », دار النشر المغربية، الدار البيضاء (1985)؛

* « المسرح المغربي في مفترق القراءة », مطبعة سيدي مومن، الدار البيضاء، الطبعة الأولى (2002)
– عباس الجراي:

* « المسرح المغربي (من التأسيس إلى صناعة الفرجة) », منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، مطبعة محمد الخامس، فاس، الطبعة الأولى (نوفمبر 1994)؛

* « أبحاث في المسرح المغربي », منشورات الزمان، سلسلة شرفات الزمن، الكتاب الأول، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية (يناير 2001).

ب. كتب باللغة الأجنبية:

– Abdallah CHAKROUN : « A la rencontre du théâtre au Maroc », Imprimerie Najah Eljadida, casablanca (1998).
– Collectif « Le texte théâtral entre l'écriture et la présentation », actes de la table ronde organisée en

الثلاثاء 08 صفر 1425 (من 30 مارس إلى 05 أبريل 2004).

- «العلم»:

* العدد 1801 (28 مايو 1952)؛

ج. الأطاريح :

رشيد بناني امشيطة، « المسرح المغربي قبل الاستقلال : دراسة دراماتورية »، رسالة دكتوراه الدولة في الآداب، تحت إشراف الدكتور يونس لوليدي، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرز فاس، السنة الجامعية (2004 - 2005).

ج. المعاجم والموسوعات: العربية:

- ابن منظور؛ « لسان العرب »، المجلد الثالث عشر، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى (1410هـ - 1990م).

- ماري إلياس وحنان قصاب حسن: « المعجم المسرحي : مفاهيم ومصطلحات المسرح وفنون العرض » (عربي، فرنسي، أنجليزي)، مكتبة لبنان، ناشرون، طبعة أولى (1997).
الأجنبية:

- ALBIN Michel : « Dictionnaire du Théâtre », Encyclopedia, Universalis, Paris (1998).
- Michel CORVIN : « Dictionnaire Encyclopédique du théâtre », Bordas, Paris (1991).
- Patrice PAVIS : « Dictionnaire du Théâtre », Edition revue et corrigée, préface de Anne Ubersfeld, Dunod, Paris (1996).



للنشر، الدار البيضاء (1998).

ث. الدوريات والمجلات والصحف:

* الدوريات :

- سلسلة شراع، كتاب نصف الشهر، عدد 49، حسن المنيعي : « المسرح مرة أخرى »، (28 شوال 1419 هـ / 15 فبراير 1999 م).

* المجلات:

- « الثقافة » (المغربية)، العدد 8، (ماي 1999)؛

- «عالم الفكر» (الكويتية)، العدد 4، المجلد 17، (يناير، فبراير، مارس 1987).

- « الفن » المغربية، العدد 2 (دجنبر 1956).

- الفنون المغربية؛ (العدد الأول السنة السادسة، 1979).

* الصحف:

- « الشمال » (تطوان)، العدد 214،

marge de la manifestation culturelle «lire le théâtre», Rabat, 1416- mai 2002, Institut Supérieur d'Art Dramatique et d'Animation Culturelle, publications du ministère de la culture, imprimerie Dar Almanahil (2004 - Pierre LARTHOMAS : «Le langage dramatique, sa nature et ses procédés », P.U.F, 3ème édition, décembre (1990).
:- Jean Pierre RAYNGAERT : «Introduction à l'analyse du théâtre », Bordas, Paris (1991)

ت. الكتب المترجمة:

- عبد الواحد عوزري: « المسرح في المغرب بنيات واتجاهات »، ترجمة عبد الكريم الأمراني، دار توبقال



الباحث محمد محفوظ سالم فال سيدي
باحث في اللغة والآداب - مرحلة الدكتوراه
كلية الآداب والفنون والإنسانيات
- جامعة منوبة - تونس

خصائص الجنس اللغوي بين اللغة العربية واللغات السامية

مقدمة:

يعتبر موضوع التذكير والتأنيث، أو «الجنس اللغوي» من أهم الموضوعات التي شغلت بال الدارسين في علم اللغة منذ نشأته الأولى، فألفت حوله الكتب المستقلة، وشغل حيّزا كبيرا من المؤلفات النحوية واللغوية، ذلك أنّ مسألة «التذكير والتأنيث» بلغت من الشمول ما لم يبلغه أيّ باب لغوي، فكلّ ما في الكون ينطلق من فكرة «التذكير والتأنيث» كما تدل على ذلك الآية الكريمة: {ومن كل خلقنا زوجين اثنين لعلمكم تذكرون}.

ولذلك فإنّ موضوع «الجنس» في اللغة العربية، منبعثٌ ثرٌّ لا يسلم منه أيّ جانب لغوي، يبرز في القرآن الكريم، والحديث الشريف، وفي كلام العرب شعره ونثره، وفي الخطاب المتداول بين العامة، وكذلك الشأن في غير العربية من اللغات السامية.

ولأهمية هذا الباب وشموله، وتعقده، ولما يطرحه من إشكالات تستنهض همم الباحثين، اخترنا أن يكون موضوعا لهذا البحث، وحسبنا في هذا المقام أن نتعرض لبعض إشكالاته، لتعذر الاستقراء، ولتشعب هذا الموضوع وسعته، وسنعالج بعض إشكالاته من خلال المنهجية التالية:

- المبحث الأول: اللغات السامية، مفهومها وأقسامها
- المطلب الأول: المفهوم والتصور
- المطلب الثاني: أقسام اللغات السامية
- المبحث الثاني: أقسام الجنس اللغوي في اللغات السامية
- المطلب الأول: نظرة عامة حول طبيعة الجنس اللغوي
- المطلب الثاني: أصناف الجنس في اللغات السامية
- المبحث الثالث: علامات التأنيث في اللغات السامية
- المطلب الأول: تاء التأنيث
- المطلب الثاني: ألفا التأنيث
- خاتمة

- المبحث الأول: اللغات السامية - مفهومها وأقسامها:

- المطلب الأول: المفهوم والتصور:

دأب علماء اللغة، واللسانيون المعاصرون على تقسيم اللغات الإنسانية إلى مجموعات، كلّ مجموعة منها تتقارب فيما بينها من حيث مستوياتها اللغوية (الصوتية - الصرفية - النحوية - المعجمية...) وهو ما يعرف

بمصطلح: الأسر، أو العائلات، أو الفصائل اللغوية، ويطلق مصطلح: «اللغات السامية» على لغات الأسرة التي تنتمي إلى الفصيلة السامية، وأول من أطلق اسم «اللغات السامية» على هذه الأسرة، هو اللغوي الألماني «شلوتسر» وذلك في أواخر القرن 18م وبالتحديد سنة 1781¹، وذلك لأن جدول الشعوب يرجع العبريين، والآراميين، والعرب إلى سام بن نوح². وقد حاول بعض اللغويين وضع تعريفات لهذا المصطلح،

1 - فقه اللغات السامية، ترجمة الدكتور: رمضان عبد التواب، جامعة الرياض 1977م، ص: 11
2 - المرجع السابق

«اللغة الحميرية» وتنقسم إلى:

- * - السبئية والمعينية
- * - العربية الشمالية: وهي لغة وسط الجزيرة العربية وشمالها، ومنها العربية الفصحى التي استقرت عليها العربية اليوم.

- المبحث الثاني: أقسام الجنس اللغوي في اللغات السامية:

- **المطلب الأول: نظرة عامة حول طبيعة الجنس اللغوي:**

قد يظن من لا خبرة له باللغة أن مسألة تصنيف الأسماء إلى فئات أو أجناس، تتفق فيها كل اللغات، أو أنها محصورة في المذكر والمؤنث فقط، غير أن من اطلع على ما كتبه اللغويون المقارنون يجد أن الأمر على خلاف ذلك، حيث تباينت اللغات في نظرتهم إلى النوع اللغوي، وتقسيماتهم إياه.

فمن اللغات ما يقسم الجنس إلى قسمين فقط: مذكر ومؤنث، ومنها ما يجعل التقسيم ثلاثياً، حيث يضيف إلى الجنسين السابقين جنساً ثالثاً اصطلاح على تسميته بـ«المحايد» ومنها ما يقسمه إلى أكثر من ذلك، كما أن بعض اللغات أهملت هذا الجانب تماماً، إذ تقسم الأشياء إلى فئات أخرى لا تمت بصلة إلى الجنس، فبعضها يقسم الأشياء مثلاً من حيث النوع إلى حي، وجماد... من هنا يظهر أن تقسيم الأسماء إلى أجناس، أو فئات، قائم على مبدأ الاصطلاح، والسمع فقط، إذ ليست هنالك صلة منطقية بين ما نسميه «جنساً» في الواقع البيولوجي، وما نسميه «جنساً» في اللغة.⁶

يقول تمام حسان: «ليس هناك صلة بين ما نسميه النوع في النحو وبين

- المطلب الثاني: أنواع اللغات السامية:

اعتمد العلماء في تصنيفهم اللغات السامية إلى مجموعات على التوزيع الجغرافي، وقد دأب كثير منهم على حصرها في قسمين كبيرين³، هما: أولاً - السامية الشرقية: وتطلق على اللغة الآشورية، والبابلية، وما تفرع عنهما.

ثانياً - السامية الغربية: وهي بدورها تنقسم إلى قسمين:

1 - السامية الشمالية الغربية: وتشمل:

- أ - الكنعانية
- ب - الآرامية
- أما الأولى (الكنعانية) فتتقسم إلى:

- * - الكنعانية الشمالية، وتمثلها اللغة الأوغاريتية
- * - الكنعانية الجنوبية، وتمثلها اللغة العبرية، والمؤابية، والفينيقية، والبنونية.

أما القسم الثاني من أقسام السامية الغربية فهو الآرامية، وهي تنقسم إلى:

- أ - آرامية النقوش
- ب - آرامية جزيرة الفيلة
- ج - آرامية الترجوم
- د - النبطية
- هـ - المندائية
- و - السامرية
- ز - السريانية، وتعد هذه الأخيرة هي أهم اللهجات الآرامية.

2 - السامية الجنوبية الغربية: وتشمل:

- أ - العربية
- ب - الحبشية
- أما الأولى فتتقسم إلى:

أ - العربية الجنوبية: وهي المعروفة عند اللغويين العرب بـ

كانت أكثر شمولاً ووضوحاً، حيث كشفوا من خلالها عن الأجناس البشرية التي شملها، وعن حدوده الجغرافية، من هؤلاء المستشرقين إسرائيل ولفنسون، الذي عرف اللغات السامية بأنها: «جملة من اللغات التي كانت شائعة منذ أزمان بعيدة في بلاد آسيا وإفريقية، سواء منها ما عفت آثاره، وما لا يزال باقياً إلى الآن»³ وممن عرفه من الباحثين العرب الدكتور عبد الكريم بوفرة، حيث يقول: «شاع مصطلح اللغات السامية نسبة إلى سام بن نوح؛ للدلالة على مجموعة من اللغات التي تشترك فيما بينها في مجموعة من الخصائص الصوتية، والصرفية، والدالية، والمعجمية، والتركيبية، والإملائية... وأصبحت «السامية» صفة ملازمة لمجموعة من اللغات والشعوب، تميزها لها عن أقوام حامية، أو طورانية، أو هندو-أوروبية، أو جرمانية»⁴.

من خلال التعريفين السابقين يمكننا أن نخرج بجملة من الملحوظات تتمثل فيما يلي:

- أن البيئة الجغرافية الأولى التي نشأت فيها هذه اللغات هي آسيا وأجزاء من إفريقيا؛
- أن هذا المصطلح مشتق من النسبة إلى «سام بن نوح» باعتبار أن نسب هذه الشعوب يلتقي عنده؛
- أن هذه اللغات تشترك في مجموعة من المستويات اللغوية، سواء البنية اللغوية الثابتة (النحوية - الصرفية) أم غيرها كالبنية الصوتية، والدالية، والمعجمية؛
- أن صفة «السامية» تأتي وصفاً لهذه اللغات، كما يوصف بها أيضاً أصحابها، فيقال: «اللغات السامية» كما يقال: «الشعوب السامية» وذلك تمييزاً لهؤلاء الشعوب، ولغتهم، عن غيرهم من الشعوب، والأمم.

3 - إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، دار القلم - بيروت، ط: 1-1980، ص: 2

4 - التوراة واللغة العبرية بين التعريب والتعريب، (مدونات النصوص القديمة: أعمال المستشرقين والأركيولوجيين) سلسلة منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، دنوات ومنطارات، رقم: 153- ص: 72

5 - انظر: عبد الحق السليوي، مفهوم اللغات السامية، قراءة في المصطلح، مجلة المعرفة، العدد التاسع، أكتوبر 2023، ص: 3، وما بعدها

6 - مزيد من البسط انظر: د. رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، الناشر: مكتبة الحافني - القاهرة، ط: الثالثة 1997م، ص: 253

خصائص الجنس الـ

اللغات السامية

Masculine Form	Feminine Form	Gender Marker
מֶלֶךְ (melech)	מַלְכָּה	-ah
מַלְכָּה (malka)	מַלְכָּה	-ta
מַלְכָּה (malka)	מַלְכָּה	-ta
נָגוּשׁ (naguś)	נָגוּשׁ	-t
נָגוּשׁ (naguś)	נָגוּשׁ	-t

Common Roots Analysis

- m-l-k (to rule)
- k → m-l-k (to rule)
- st) → m-l-k (to rule), & family)
- st) → m-l-k (to rule), family)
- st) → m-l-k (to rule), family)



عن بعض نحويًا، وتتوزع فيها كلّ أشياء العالم المحسوس، ويرجع هذا التوزيع في الحقيقة إلى تأملات لاهوتية، أو بتعبير أحسن تأملات خرافية، على قدر ما يبدو للرجل البدائي أنّ العالم كله من الأحياء¹³. ومن اللغات ما لا يراعى فيه جانب التذكير والتأنيث، كاللغة الفارسية، ولغة البانتو في جنوب إفريقيا، حيث يراعى المتكلم بها في صيغ الأسماء الفرق بين الحي والجماد¹⁴.

- المطلب الثاني: أصناف الجنس في اللغات السامية

تتفق اللغات السامية على تقسيم الاسم إلى جنسين فقط، مذكر، ومؤنث، حيث وزعت ذلك القسم الثالث - وهو المذكر والمؤنث

الفكرة المستشرق الألماني البرشت، حيث صرح بأنها شائعة في اللغات السامية، فيقول: «إن الساميين يدرجون في عداد المذكر كل ما هو خطر ومتوحش، أو شجاع ومرهوب، أو عظيم وقوي، أما المؤنث فيشتمل على كل ما هو رؤوم حنون، أو يمدنا بالغذاء وأسباب الحياة، أو ما يتصف بالبرقة والضعف¹¹».

وقد تنبّه اللغويون العرب القدماء إلى هذه المسألة، فصرّحوا أنّ التذكير والتأنيث في اللغة من خصائص الحيوان، واستعماله في غيره مجاز بالاستعارة، يقول ابن رشد: «والتذكير والتأنيث في المعاني إنما يوجد في الحيوان، ثمّ قد يتجوّز في ذلك في بعض الألسنة، فيعبّر عن بعض الموجودات بالألفاظ التي أشكّالها أشكال مؤنثة، وعن بعضها بالتي أشكّالها أشكال مذكّرة، وفي بعض الألسنة ليس فيه للمذكر والمؤنث شيء خاص، كمثّل ما حكى أنه يوجد في لسان الفرس، وقد يوجد في بعض الألسنة أسماء هي وسط بين المذكر والمؤنث، على ما حكى كذلك أنه يوجد في اليونانية¹²».

وما أشار إليه ابن رشد نجده الآن في بعض اللغات الأوروبية، فمنها ما يقسم الأسماء إلى ثلاثة أقسام: مذكر، ومؤنث، ومحايد، كاللغة الألمانية، وهناك لغات أخرى بدائية ينقسم فيها الجنس إلى أكثر من ذلك، يقول بروكلمان: «لا يوجد في اللغات البدائية نوعان فقط من الجنس، كما في اللغات السامية، ولا ثلاثة أنواع كما في اللغات الهندو أوروبية، بل يوجد فيها غالباً أنواع كثيرة، يفترق بعضها

ما نسمّيه الجنس في الطبيعة، وبعبارة أخرى ليس هناك صلة بين التذكير والتأنيث في الذنوّ، وبين الذكورة والأنوثة، فالتذكير والتأنيث نواح تطريزية تقسيمية خلافية للتفريق بين طائفتين من الكلمات من ناحية سلوكهما في السياق...⁷ «وقدّم على هذا مثالا جيّدا حيث يقول: «إنّ الشمس والقمر لمثالان رائعان لدراسة هذه الظاهرة في لغات مختلفة، فالشمس مؤنثة في العربية مذكر في الإنجليزية، والقمر مذكر في العربية مؤنث في الإنجليزية، فالتذكير والتأنيث إذا تطريز اجتماعي، يتفق أحيانا مع الواقع» ويقول محمود السعمران: «إن الجنس يجري على منطق خاص، بمعنى أن الجنس اللغوي لا يطابق الجنس في الواقع الطبيعي، فالاصطلاح وحده هو الذي ذكر الهواء، وأنث الأرض والسماء في العربية⁸».

وعلى الرغم مما سبق فإنّ بعض الدارسين حاولوا أن يستخرجوا تعليقات لهذا التصنيف، حيث ذهب بعض اللغويين العرب القدماء إلى أن «التذكير» مقترن بكل ما يوحى إلى الشدة، والصلابة، والخشونة، والقوة، والشجاعة، وعلى خلاف ذلك يقترن «التأنيث» بالليونة، والسهولة، والخصب، والإنبات، يدل على ذلك مدلولات «ذكر» في اللغة العربية، كقولهم: سيف مذكر: قاطع، ومطر ذكر: وابل شديد⁹، وعلى خلاف ذلك مدلولات «أنثى» قال ابن سيدة: «فأصل هذا الباب إنما هو الأنثى الذي هو اللين، والأنثى ما كان من الحديد غير ذكر، وسيف أنثى ليس بقاطع¹⁰»، ويؤكد هذه

7 - تام حسان، منابع البحث في اللغة، مكتبة الأجلو المصرية، 1990م، ص: 215

8 - محمود أحمد السعمران، علم اللغة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت، ص: 222

9 - المعجم الوسيط، جمهورية مصر العربية، مجمع اللغة، مكتبة الشروق الدولية، ط4: 4، 2004، ص: 313

10 - المرجع السابق

11 - د. محمد حسن إبراهيم الجنس ونشوءه في اللغات السامية، بحث نشر عام: 1989، دار الفكر للنشر والتوزيع - عمان، ص: 3

12 - تلخيص الخطابة، 569

13 - فقه اللغات السامية، ترجمة الدكتور: رمضان عبد التواب، جامعة الرياض 1977م، ص: 95

14 - انظر إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، مكتبة الأجلو المصرية، ط4: الثالثة 1966م، ص: 144

كلها لم تكن موجودة في اللغات السامية، في فتراتهما الأولى، وإنما حدثت نتيجة للتطور اللغوي¹⁹.

يصرح بروكلمان برأيه حول أصل الجنس في اللغات السامية قائلا: بأنه من الممكن اعتبار التذكير والتأنيث نوعا من تقسيم الأسماء إلى أصناف، كما هو معروف في بعض اللغات الإفريقية، التي قد يصل عدد أصناف الأسماء في بعضها إلى عشرين صنفا، ويستدل بروكلمان على ذلك بوجود أكثر من علامة للتأنيث، ويحتمل أن تكون هذه العلامات التي تؤدي نفس الوظيفة اليوم كانت تؤدي وظائف مختلفة في الأصل، أي أنه ربما كانت كل علامة من هذه العلامات تدل على صنف معين من الأسماء²⁰.

ونجد فكرة تطور الجنس اللغوي عند مستشرقين فرنسيين كانت لهما أعمال مشتركة في مجال اللغات السامية، هما: فغالي وكوني، حيث ذهبا إلى أن الأسماء السامية انقسمت أولا إلى مجموعتين: المجموعة الأولى تتكون من الأسماء الدالة على كائنات حية، والثانية الدالة على كائنات غير حية، ثم انقسمت المجموعة الأولى قسمين: مذكر، ومؤنث، ثم كانت مرحلة من تطور الجنس ثانية، حيث انقسمت فيها الأسماء الدالة على كائنات غير حية على مجموعتي الأسماء الدالة على الذكور والإناث، فأصبح لدينا نوعان فقط: مذكر، ومؤنث، وقد حدث هذا التطور قبل أن تتفرع اللغة السامية الأم إلى لغات مختلفة²¹.

ونجد نفس الرأي عند المستشرق «سبايزر» حيث يرى أن الأسماء في أول الأمر كانت تنقسم إلى: كائنات حية، وأخرى غير حية، وقد نبه

لغوي بين اللغة العربية واللغات السامية

اللغة العربية

كَتَبَ الطَّالِبُ الْمُجْتَهِدُ
The diligent student wrote
Masculine
Verb & adjective

كَتَبَتِ الطَّالِبَةُ الْمُجْتَهِدَةُ
The diligent student wrote
Feminine
Ta Marbuta

Taa Marbuta (ة)

مُعَلِّمَةٌ vs مُعَلِّمٌ
Teacher, f. vs Teacher, m.

Alif Maqsura (ى) / Taa' Ta'neeth (ت)

كَبُرَى vs كَبُرَى
Major, f. vs Major, f.
كَتَبَتْ vs كَتَبَتْ
She wrote vs She wrote

أوجه التشابه والاختلاف

Language	M
Hebrew	7
Aramaic	8
Syriac	9
Ge'ez	10
Amharic	11

m-l
malkitad (nag
mafharad (nag
amhari (nag

(ما يذكر ويؤنث) لا يمكن أن يكون قسما قائما بنفسه، قسيما للقسمين الآخرين، ذلك أن أغلب ما يجوز فيه الوجهان غالبا ما يكون منشؤه من اختلاف اللهجات داخل اللغة الواحدة، فيذكر في لهجة، ويؤنث في أخرى، أون اختيار التذكير والتأنيث متروك للمتكلم، إما أن يذكر، وإما أن يؤنث، إذ لا يمكن أن يجمع بينهما في آن واحد.

ويطرح بعض المستشرقين افتراضا أن اللغات السامية ربما كانت في فتراتهما القديمة تمتلك تقسيمات أخرى لم تعد موجودة، وهذا نابع من فكرة «تطور الجنس اللغوي» على غرار فكرة «تطور الأجناس» التي انتشرت في العصر الحديث، كما أن بعضهم يرى أن فصيلة النوع

المجازيان - على القسمين السابقين، يقول بروكلمان: «من خصائص اللغات السامية أنها تصنف الأسماء من جهة الجنس إلى مذكر ومؤنث¹⁵» وهذا مطرد في جميع الأسماء، حيث «وزعت اللغات السامية أسماء القسم الثالث وهو المحايد على القسمين الآخرين، وصارت الأسماء فيها إما مذكورة، وإما مؤنثة¹⁶» يقول المستشرق رايت: «اعتبر خيال الساميين النشيط كل الأشياء - حتى تلك التي لا حياة فيها - ذات حياة، وشخصية¹⁷».

ويرى بعض اللغويين المعاصرين أن النوع في اللغة العربية ينقسم إلى ثلاثة أقسام: مذكر، ومؤنث، وما يذكر ويؤنث¹⁸. ونحن نرى أن هذا القسم الثالث

15 - أ.د. رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص: 250.

16 - رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص: 252.

17 - المرجع السابق.

18 - انظر إميل يعقوب، المعجم المفصل في المؤنث والمذكر، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط: الأولى، 1994 ص: 12.

19 - انظر: د. محمد حسن إبراهيم - الجنس ونشؤه في اللغات السامية، ص: 41.

20 - المرجع السابق.

21 - المرجع السابق.

على أنه ما يزال أثر ذلك في اللغة إلى اليوم، فطبق نظريته على أسماء الاستفهام، وذلك من خلال استعمال «مَنْ» للعاقل، و«ما» لغير العاقل²². وهذا المثال الأخير قد يقود إلى القول بأن العربية ربما كانت في فترات متقدمة تحتفظ بصنف خاص، وهو العاقل/غير العاقل، ولم يبق من آثاره إلا هذا الاستعمال (من/ما).

- المبحث الثالث: علامات التأنيث في اللغات السامية:

تتفق اللغات السامية على جعل «التاء» و«الألف الممدودة» و«الألف المقصورة» علامات للتأنيث، ولكن هذه العلامات لا تكفي وحدها في اللغة العربية، وذلك لأن العربية تميل إلى التدقيق والتخصيص أكثر من أخواتها، وقد أدرك ذلك بعض اللغويين العرب، حيث أوصلها ابن الأنباري إلى خمس عشرة علامة: «ثمان منها في الأسماء، وأربع في الأفعال، وثلاث في الأدوات، فأما التي في الأسماء ف«الألف المقصورة» مثل: (ليلي) و«الألف الممدودة» (حمرأ) و«التاء» (أخت) و«الهاء» (طلحة) و«النون» (هنّ) و«الكسرة» (أنت) والياء (هذي) والألف والتاء في الجمع على نحو: مسلمات، وأما اللاتي في الأفعال ف«التاء» على نحو: قامت، و«الياء» نحو: تضربين، و«الكسرة» نحو: قمت، و«النون» مثل: قمن، وأما اللاتي في الأدوات ف«التاء» (ربت) و«الهاء» (لات-لاه) و«الهاء والألف» إنها²³. وسنقف مع هذه العلامات الثلاث المتقدمة، لأنها مشتركة بين هذه اللغات، كما أنها أيضا هي أكثر العلامات تداولاً في الكتب النحوية.

- المطلب الأول: تاء التأنيث:

وهي من أهم علامات التأنيث، وأكثرها انتشاراً في اللغات السامية²⁴، ويرى ابروكلمان أنها ربما كانت في الأصل عنصراً من عناصر الإشارة²⁵.

وما أشار إليه ابروكلمان من تطور هذه التاء، نجده عند بعض اللغويين المقارنين، فنجد المستشرق الأمريكي «اسبيازر» في إطار بحثه عن أصل تاء التأنيث في اللغات السامية، يستبعد مصدرين محتملين لتاء التأنيث:

أ - يستبعد «سبازر» أن يكون مصدر هذه التاء هو الضمائر، وذلك لأننا لا نعثر على أي أثر لهذه التاء في الضمائر السامية، فلو أنها كانت تستعمل قديماً للتمييز بين المذكر والمؤنث في الضمائر لبقى منها أثر على الأقل.

ب - كذلك يستبعد أن تكون هذه التاء قد انحدرت من تاء مماثلة كانت تستعمل في بعض الأسماء الدالة على إناث، وذلك لسبب بسيط، هو أن اللغات السامية حين كانت تريد التمييز بين الذكر والأنثى كانت تلجأ إلى استعمال اسمين مختلفين للدلالة على ذلك (حصان - فرس - رجل - امرأة...²⁶)

وعلى هذا يستنتج أن التاء المربوطة لم تكتسب وظيفتها الحالية، التي هي الدلالة على تأنيث الاسم إلا في مرحلة متأخرة نسبياً، من مراحل تطور اللغات السامية، ويسوق دليلاً آخر على هذا، وهو أن هذه التاء في جميع اللغات السامية تقوم بعدة وظائف أخرى علاوة على وظيفتها علامة للتأنيث، ومن أهم هذه الوظائف²⁷:

- صياغة الأسماء المجردة من

الصفات، والأعداد، والأفعال، كما في الأمثلة: حسنة - خماسية..
- بناء أسماء الجماعة، كافر وكفرة، قاتل وقتلة...
- صياغة الأسماء المفردة، من أسماء الجماعة، فهو عكس سابقه، مثل: بقر وبقرة، وشعر وشعرة..
- تلحق بعض الأسماء المصغرة، مثل: عين وعيينة، أنثى وأنيثة...
- تأتي للدلالة على النسب، مثل: مشاركة، مغاربة...
- تأكيد المبالغة، مثل: علامة، ونسابة...
- تكثير حروف الكلمة، مثل: قرية، وبلدة...
- التعويض عن فاء الكلمة، أو عينها، أو لامها، مثل: عدة، وإقامة، وسنة..

22 - المرجع السابق

23 - أبو البركات بن الأنباري، المذكر والمؤنث، مخ: محمد عبد الحافظ عظمة، الناشر: وزارة الأوقاف، لجنة إحياء التراث، 1981م، 1/ 176-177

24 - د. رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة 256

25 - المرجع السابق

26 - المجلس ونشوء في اللغات السامية ص: 46

27 - رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ونماذج البحث اللغوي، ص: 261

ونجد باحثاً متأخراً يعلل اشتراط القدماء للفتحة التي تسبق التاء بقوله: «ويبدو أن الفتحة التي تسبق تاء التانيث جيء بها في الأصل لغرض صوتي سامي، وهو التخلص من توالي السواكن: فلو وقف على كثير من الكلمات المؤنثة دون أن نحركه بحركة الإعراب، لقليل في نحو: كلب: كلبت، فالتقى بذلك ثلاث سواكن، ثم جيء بالفتحة بين الباء والتاء لكسر حدة الثقل المترتب على توالي السواكن، فقليل: كلب³²».

غير أن أغلب اللغويين المعاصرين لا يشترطون في تانيث الاسم أن يكون ما قبل تاء التانيث مفتوحاً، وقد عدوا ذلك قصوراً من المتقدمين، لعدم اطلاعهم على اللغات الأخرى، يقول رمضان عبد التواب³³: «وهذه الفكرة الخاطئة هي إحدى نتائج الجهل باللغات السامية، يقول في ذلك ابرجشتراسر:» وذكر الزمخشري أن التاء في الأخت والبنات أبدلت من الواو، وذلك أنه ظن أن مادتهما: أخو، وبنو، وأن التاء أصلية لام الفعل قامت مقام الواو. ونحن نعرف أن الأخ والابن من الأسماء القديمة جداً، التي مادتها مركبة من حرفين فقط، لا من ثلاثة أحرف، وأن التاء - وإن لم تسبقها فتحة - هي تاء التانيث، فهي في غير اللغة العربية، وخصوصاً في الأكادية، والعبرية، كثيراً ما لا فتحة قبلها³⁴». وهذه التاء تجعل هاء عند السكت، واختلف اللغويين في ذلك، فالبصريون يرون أن التاء هي الأصل، والهاء منقلبة عنها في الوقف، يقول المبرد - وهو بصري - «وأما الهاء فتبدل من التاء الداخلة للتانيث، نحو: نخلة وتمر، وإنما الأصل التاء،

فتغيرها وتغير معناها إلى حد ما، وعن طريق هذه الوظيفة برزت التاء المربوطة في اللغات السامية... للدلالة على الأسماء المؤنثة²⁸». وقد اشتراط النحاة العرب القدماء أن يكون ما قبل هذه التاء مفتوحاً، قال ابن يعيش: «تاء التانيث لا تكون في الأسماء المفردة إلا وقبلها مفتوح، نحو: حمزة، وطلحة²⁹» وقال السيرافي: «والتاء الزائدة للتانيث هي التي يلزم ما قبلها الفتحة، ويوقف عليها بالهاء، كقولنا: دجاجة، وما أشبه ذلك³⁰» ولهذا السبب رفض ابن منظور أن تكون التاء في «بنت» للتانيث وذلك لسكون ما قبلها³¹.

- التعويض عن مادة تفعيل، مثل: تزكية، وتنمية... من خلال العرض السابق نجد تقلباً فائقاً في وظائف التاء المربوطة «فمن جملة وظائفها صياغة أسماء الجماعة، ثم القيام بوظيفة معاكسة تماماً، وهي صياغة أسماء المفرد من أسماء الجماعة، هذا التناقض وعدم الاطراد دفع باسبائزر إلى استنتاج حقيقة هامة حول الوظيفة الأساسية لهذه التاء، وهذه الوظيفة الأساسية لم تكن صياغة أسماء الجماعة، أو الوحدة، ولا أي من الوظائف التي ذكرناها، وإنما كانت الوظيفة الرئيسة للتاء هي وظيفة اشتقاقية، تلحق ببعض الصيغ،

28 - د. محمد حسن إبراهيم، الجنس ونشوؤه في اللغات السامية، ص: 47 - 29 - شرح المفصل، ج: دانييل يعقوب، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط: الأولى، 2001م، ج: 3، ص: 364 - 30 - السيرافي، شرح كتاب سيبويه، ت: أحمد حسن محمد، وعلى سيد علي، ن: دار الكتب العلمية - بيروت ج: 3، ص: 436 - ابن منظور، لسان العرب، ت: عبد الله علي الكبير، ن: دار المعارف (طبعة القاهرة) مادة (ب ن ي) ج: 14، ص: 67 - 31 - ابن منظور، لسان العرب، ت: عبد الله علي الكبير، ن: دار المعارف (طبعة القاهرة) مادة (ب ن ي) ج: 14، ص: 67 - 32 - د. إسحاق أحمد عابرة، ظاهرة التانيث بين اللغة العربية واللغات السامية، دار حنين للنشر والتوزيع، 1992م، ص: 47 - 48 - 33 - رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص: 257 - 34 - التطور النحوي، ص: 51

والهاء بدل منها في الوقف³⁵ ويرى الكوفيون خلاف ذلك، على نحو ما صرح به بن الأنباري³⁶ ويرى بعض اللغويين المعاصرين أنه لا صلة بين التاء والهاء، فكل منهما أصل، فعندما سقطت التاء لعلّة صرفية، جيء بالهاء لعلّة أخرى، يقول رمضان عبد التواب: «ونحن نقول إن التاء تقلب هاء إنما ننظر إلى النتيجة النهائية، لا إلى التطور الصوتي، فإنه ليس ثمة علاقة صوتية بين التاء والهاء، وإنما تطور المسألة أن التاء سقطت حين الوقف على المؤنث، فبقي المقطع السابق عليها مفتوحا ذا حركة قصيرة، وهذا النوع من المقاطع تكرهه العربية في أواخر الكلمات، فتتجنبه بإغلاق المقطع عن طريق امتداد النفس بهاء السكت. وهكذا يبدو الأمر كما لو أن تاء التأنيث قد قلبت هاء، على أن الحقيقة هي أن التاء قد سقطت لعلّة، وأن الهاء قد جاءت لعلّة أخرى، فليس بينهما تبادل صوتي كما ترى³⁷.

- المطلب الثاني: ألفا التأنيث

زيادة على ما تقدم من اتفاق اللغات السامية على استعمال التاء علامة للتأنيث، فإنها أيضا تتفق على استعمال علامات أخرى أقل شيوعا من التاء، وهي ألفا التأنيث الممدودة، والمقصورة، رغم تفاوت هذه اللغات في هذا الاستعمال. فأما ألف التأنيث المقصورة، فهي: ألف مقصورة، تأتي في نهاية الاسم المعرب لتدل على تأنيثه، وهي سماعية محضة، لا تدخل في غير الوارد عن العرب³⁸.

وهذه الألف تأتي أصلية، كما في فتى، وندي، وزائدة، كما في حبلى وسكرى.

وتأتي في العربية على كثير من الأوزان، حيث أحصى د. إميل يعقوب اثنين وأربعين وزنا من الأوزان التي وردت عليها هذه الألف عن العرب³⁹.

وأما الممدودة فهي: ألف ممدودة تجيء في نهاية الاسم المعرب لتدل على تأنيثه، وهي أيضا سماعية محضة، لا تدخل في غير الوارد من العرب⁴⁰.

ولهذه الألف أيضا كثير من الأوزان في العربية، أحصى منها إميل يعقوب واحدا وثلاثين وزنا⁴¹.

أما عن وجود الألف علامة على التأنيث في اللغات السامية الأخرى، فإن الألف الممدودة قليلة الاستعمال في هذه اللغات، وأما الألف المقصورة فقد عرفت في بعض اللغات السامية كالعبرية، والآرامية، وقد حدثت المروحة بين الألف والتاء في الآرامية، كما حدثت في العربية، فالأعداد: إحدى، وثلاثة، وستة، وثمانية، جاءت مؤنثة بالألف، أما الأعداد: أربعة، وخمسة، وسبعة، وتسعة، وعشرة، فقد جاءت مؤنثة بالهاء، وهي تاء عند الإضافة حين توصل، كما هي الحال في العربية والعبرية⁴².

وفي إطار البحث عن أصل هذه الألف، يرى الدكتور إسماعيل أحمد عمايره أنها «منطورة في الأصل عن التاء، ومما يؤكد هذا عنده أن التاء إذا وقف عليها قد تنطق هاء، كما في فاطمه، وطلحه، وقد حدث في العبرية أن أصبحت تاء التأنيث هاء

في كثير من الكلمات، وقد يكون للنبر أثر كبير في مدّ هذه الألف المحولة عن الهاء، فإن كان المدّ يسيرا كانت ألفا مقصورة، وإن كان مدّا طويلا يوشك النفس أن ينتهي معه، انتهت هذه الألف بالهمزة، والتبادل بين المقصور والممدود يحصل في العربية، كما في البكا، والبكاء، سمع بالمدّ والقصر⁴³.

ويلاحظ افغالي وكوني أن هاتين الألفين (الممدودة والمقصورة) كانتا في الأصل كالتاء تستخدمان في بعض صيغ الجموع، كما في شعراء، فقراء، عذارى، وقتلى، كما أنهما يلاحظان أن هاتين الألفين قديمتان قدم التاء من حيث دلالتها على المؤنث، وذلك أننا نجد في جميع اللغات السامية أسماء مؤنثة وعلامة تأنيثها إحدى الألفين، كما في «سلوى» (طائر) التي نجدها في العربية، والسريانية، وعكباء في العربية، والسريانية⁴⁴.

ومن ناحية استعمالهما في اللهجات العربية المعاصرة، يرى الدكتور رمضان عبد التواب أن هاتين العلامتين «قد زالتا تقريبا من بعض اللهجات العربية الحديثة، وحلت محلها تاء التأنيث، فنحن نقول في: حمراء، وبيضاء، وصحراء، وعمياء، وميناء: حمرة، وبيضة، وصحرة، وعمية، ومينه، وكما نقول في: حبلى، وسلوى، وخبازى، وعدوى، وفتوى: حبله، وسلمه، وخبزه، وعدوه، وفتوه⁴⁵.

35 - المبرد، المقضب، ت: محمد عبد الحلق عظمة، ن: وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (مصر) ج 1، ص: 142.

36 - ابن الأنبار، الإصناف في مسائل الخلاف، ت: محمد يحيى الدين عبد الحميد، ن: دار الفكر - 124/1.

37 - د. رمضان عبد التواب، مرجع سابق، ص: 257.

38 - المعجم المفصل في المؤنث والمذكر، ص: 66.

39 - المعجم المفصل في المؤنث والمذكر، ص: 66.

40 - المرجع السابق.

41 - المعجم المفصل، ص: 74.

42 - ظاهرة التأنيث بين اللغة العربية واللغات السامية.

43 - ظاهرة التأنيث بين اللغة العربية واللغات السامية، ص: 75.

44 - الجنس ونشوء في اللغات السامية.

45 - رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث.

قائمة المصادر والمراجع

- فقه اللغات السامية، ترجمة الدكتور: رمضان عبد التواب، جامعة الرياض
- إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، دار القلم - بيروت، ط: 1- 1980
- التوراة واللغة العبرية بين التغريب والتعريب، (مدونات النصوص القديمة: أعمال المستشرقين والأركيولوجيين) سلسلة منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ندوات ومناظرات.
- عبد الحق السعلوي، مفهوم اللغات السامية، قراءة في المصطلح، مجلة المعرفة، العدد التاسع، أكتوبر 2023،
- د. رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، الناشر: مكتبة الخانجي- القاهرة، ط: الثالثة 1997م
- تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1990م
- محمود أحمد السعمران، علم اللغة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر- بيروت
- المعجم الوسيط، جمهورية مصر العربية، مجمع اللغة، مكتبة الشروق الدولية، ط: 4، 2004،
- د. محمد حسن إبراهيم الجنس ونشؤه في اللغات السامية، بحث نشر عام: 1989/، دار الفكر للنشر والتوزيع- عمان
- إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط: الثالثة 1966م
- إيميل يعقوب، المعجم المفصل في المؤنث والمذكر، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط: الأولى، 1994
- شرح المفصل، تح: د. إيميل يعقوب، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط: الأولى: 2001م، ج/3،
- السيرافي، شرح كتاب سيبويه، تح: أحمد حسن مهدي، وعلي سيد علي، ن: دار الكتب العلمية- بيروت ج/3،
- ابن منظور محمد بن مكرم، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير، دار المعارف (طبعة القاهرة) مادة (ب ن ي) ج/14،
- د. إسماعيل أحمد عمارة، ظاهرة التأنيث بين اللغة العربية واللغات السامية، دار حنين للنشر والتوزيع
- أبو البركات بن الأنباري عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، المذكر والمؤنث، تح: محمد عبد الخالق عزيمة، الناشر وزارة الأوقاف، لجنة إحياء التراث، 1981م، 176-177
- المبرد أبو العباس محمد بن يزيد، المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عزيمة، وزارة الأوقاف- المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (مصر) ج/1،

خاتمة:

من خلال ما سبق من عرضنا لبعض مباحث التذكير والتأنيث، كتصنيف الجنس وأقسامه، وعلامات التأنيث، يمكننا أن نخرج بجملة من الاستنتاجات تتمثل فيما يلي:

- أن مصطلح «اللغات السامية» ظهر مع المستشرق الألماني اشلوتسر أواخر القرن 18م
- أن هذا المصطلح مشتق من النسبة إلى «سام بن نوح» باعتبار أن نسب هذه الشعوب يلتقي عنده
- أن هذه اللغات تشترك في مجموعة من المستويات اللغوية، سواء البنية اللغوية الثابتة (النحوية - الصرفية) أم غيرها كالبنية الصوتية، والدالية، والمعجمية
- أن اللغات السامية تنقسم إلى: لغات سامية شرقية، ولغات سامية غربية، وكل واحدة منهما تتفرع عنها لغات أخرى
- أن «الجنس اللغوي» نوع من الفصائل اللغوية، وهو خاضع للاصطلاح، لا يتبع منطقاً موحداً، إذ أن من اللغات ما يجعل تقسيم الجنس اللغوي ثنائياً، ومنها ما يجعله ثلاثياً، ومنها ما لا يوجد فيه هذا التقسيم أصلاً، إذ يقسم النوع اللغوي إلى أشياء أخرى غير الجنس، كالتفريق بين الحي والجماد مثلاً، أو العاقل وغير العاقل، أو الأشياء الكبيرة وما شابهها، والأشياء الصغيرة وما شابهها...
- أن اللغات السامية كلها تتفق على تقسيم الجنس اللغوي قسمين فقط: مذكر، ومؤنث
- أن اللغات السامية تتفق في ثلاث علامات من علامات التأنيث، هي: التاء - ألف التأنيث الممدودة - ألف التأنيث المقصورة.
- وصفوة القول إن موضوع التذكير والتأنيث ما يزال موضوعاً خصباً للباحثين الجادين؛ لما فيه من إشكالات مطروحة لم تنل بعد ما تستحق من الدراسة والتحليل، وحسبنا في هذا المقال أن نكون قد وفقنا إلى توضيح بعض الجوانب المتعلقة بخصائص الجنس بين اللغات السامية.



د. مريم بنت الشيخ

رثاء الزوجات في الشعر الشنقيطي

الكلمات المفاتيح: رثاء - الزوجات - الشعر - الشنقيطي

مدلول مفهوم الرثاء

الرثاء مصدر من رثاه يرثيه قال ابن منظور رثا فلان فلانا يرثيه رثيا ومرثية إذا بكاه بعد موته ورثيت الميت رثيا ورثاء ومرثية مدحته بعد موته وعددت محاسنه والرثاء في الاصطلاح بكاء الميت وتعداد محاسنه بالشعر والنثر وليس بين الرثاء والمدح فرق إلا أنه يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت مثل كان أوعدمنا به¹، وتوجد للرثاء معان أخرى هي: أبْن، وندب، ونعي، فهي كلها تقال في ظروف الحزن والبكاء عند فقدان شخص يبيكه الراثي² ويعدد محاسنه؛ فأبْن في تعريف أهل اللغة مدح الرجل بعد موته وبكاه؛ قال متمم بن نويرة:

لعمري وما دهري بتأبين مالك

ولا جزعا مما أصاب فأوجعا
وقال ثعلب هو إذا ذكرته بعد موته بخير
وقال ابن سيده وقد جاء في الشعر مدحا
للحي وهو قول الراعي:

فرفع أصحابي المطي وأبنوا

هنبدة فاشتاق العيون اللوامح
قال مدحها فاشتاقوا أن ينظروا إليها
فأسرعوا السير إليها شوقا منهم أن ينظروا
منها، أما قولك أبنت أثره فهو بمعنى قفوته
ومن اقتفاء الأثر العادي كان اقتفاء الأثر

للمرثي مجازا ولهذا سمي مادح الميت
مؤبنا لا تباعه أثر فعاله وصنائه³.

ونذب الميت بكى عليه وعدد محاسنه
يندبه ندبا والاسم الندبة وهو من النذب
للجراح لأنه احتراق ولذع من الحزن
والندب أن تدعو النادبة الميت بحسن
الثناء بأحسن أوصافه وأفعاله وتتنع
آثاره الحميدة في قولها «وافلانا»⁴ واهناه⁵
واسم ذلك الفعل الندبة قال ابن سيده
ونذب الميت بعد موته من غير أن يقيد
بالبكاء⁶ وهذا التعريف ينطبق تماما على
معنى الرثاء الذي رأينا والذي يعنينا من
هذه الأصول اللغوية للكلمة الجانب الذي
يقربها مجازا من معنى الرثاء الاصطلاحي
فالأثر هنا من معنى أثر الجرح إذا لم يرتفع
عن الجلد ويبدو أن أثر الجرح وما يسببه
من ألم تطور مجازا إلى أثر جرح الفراق
للأحبة وهو جرح غائر لا يندمل ونتائجه
تظهر في الحزن المستمر والبكاء الموجه
وهذا المعنى هو الذي يربط بين
معنى الرثاء والندب⁷

والنعي لغة إشاعة الخبر ثم تطور مجازا
إلى إشاعة خبر الموت وقيل النعي الميت
والناعي الذي يأتي بخبر الموت قال
الشاعر:

قام النعي فأسمعا

ونعي الكريم الأروعا⁸

والنعي كثير الورود في شعر الرثاء بلفظه
ويأتي بمعنى إعلان الحزن والبكاء على
الفقيد⁹ كقول طرفة بن العبد¹⁰

إذا مت فأنيني بما أنا أهله

وشقي علي الجيب يا بنة معبد

وقال لبيد بن ربيعة في رثاء أخيه أريد¹¹

انع الكريم للكريم أريدا

انع الرئيس واللطيف كبدا

وهكذا وجدنا أن لمعنى الرثاء وما يتعلق
به ألفاظ أربعة كلها تقال في ظروف الحزن
والبكاء.

رثاء الزوجات في الشعر العربي القديم:

رثاء الزوجات غير مألوف في البيئة
الجاهلية ونادر جدا في الشعر العربي القديم
بصفة عامة لأسباب تعود إلى وضع المرأة
في ذلك المجتمع فأول نص وجدناه في هذا
الموضوع هو قول جرير في رثاء زوجته؛
وقد جاء رثاؤه مقدمة لقصيدة تضم اثنين
وثمانين بيتا خصص أربعة وعشرين بيتا
منها لرثاء زوجته وبقية القصيدة في هجاء
الفرزدق¹²، يقول من الكامل

1 - محمد بن مكرم بن منظور لسان العرب دار صادر بيروت لبنان / رثا.

2 - ابن قتيبة، المعدة في محاسن الشعر وفنونه، نج: محمد محي الدين عبد الحميد دار الجيل بيروت لبنان ج2 ص 25

3 - ابن منظور، م ص

4 - ابن منظور لسان العرب/ أبْن.

5 - الأزهري أبو منصور محمد بن أحمد تهذيب اللغة الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة 1964 ج 15 ص 503

6 - ابن منظور لسان العرب/ نذب

7 - بشري محمد علي الخطيب الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام كلية آداب جامعة بغداد

8 - اللسان / انما

9 - بشري محمد علي الخطيب مرجع سابق ص 24

10 - ديوان طرفة

11 - ديوان لبيد

12 - ديوان جرير دار بيروت للطباعة والنشر 1985 ص 154

فهي تبدأ غالباً بالتفجع على الميت ثم تندب مناقبه وجلال أعماله وتدعوه بالرحمة ثم تتوسل بالرسول فتصلي عليه وتسلم¹⁶، وعلى هذا المنوال سار شعراؤنا، يقول الشيخ محمد حامد بن ألا¹⁷ في رثاء زوجته من البسيط:

1. الدمع جار لذكرى أم عمار
حق البدار لصوب المدمع الجاري
2. تعتادني ذكرٌ منها مجرّحةٌ
منها القلوب بأنياب وأظفار
3. بينا أجمع نفسي بينها فإذا
قين الفراق كذوب مصبح سار
4. لما قضى مع غرس الود خالقنا
بالبين حزله قلبي بمنجار
5. وفي الفؤاد جروح من تبسمها
ومن دعابتها للخل والجار
6. ومن فخامتها في عين ناظرها
ومن قبول محيا غير مكشّار
7. ومن حديث كمرجان تقطعه
دأبا بأيّ وأمثال وأشعار

لقد بدأ الشاعر بتصوير ما أصابه من تأثير الفاجعة التي حلت به في سياق عبرت عنه الجملة الاسمية «الدمع جار» في مستهل حديثه حيث يخبر من البداية بانكساره وتمزقه وتلاشي جوار الحدث الأليم الذي ألم به وقد بلغ التلاشي مداه في قوله «جار» لما تحمله الصيغة الصرفية وتعضده الدلالة المعجمية لهذا اللفظ؛ فاسم الفاعل بطبعه يحمل معنى الديمومة والاستمرار فهو جار دون توقف ومعجماً جرى الماء في الوادي انسباب وسال وتدفق، وهذه الدلالة للصيغة والمعجم يؤازرها ويؤكد لها صوت النون والتنوين الذي يحيل إلى الأنين والألم وقد ورد ست مرات

لم أدر هل خطب ألم بساحتي
فأناخ أم سهم أصاب سوادي
أقذى العيون فأسبلت بمدامع
تجري على الخدين كالفرصاد
ما كنت أحسبني أراع لحادث
حتى منيت به فأوهن آدي
أبلتني الحشرات حتى لم يكد
جسمي يلوح لأعين العواد
أستنجد الزفرات وهي لوافح
وأسغه العبرات وهي بوادي
لا لوعتي تدع الفؤاد ولا يدي
تقوى على رد الحبيب الغادي

وختمها بقوله
تالله ما جفت دموعي بعدما
ذهب الردى بك يابنة الأمجاد
لا تحسبيني ملت عنك مع الهوى
هيئات ما ترك الوفاء بعادي
قد كدت أقضي حسرة لو لم أكن
متوقعا لقياك يوم معادي
فعليك من قلبي التحية كلما
ناحت مطوقة على الأعواد

ويقول محمد مهدي الجواهري في رثاء زوجته من البسيط¹⁸ :
في ذمة الله ما ألقى وما أجد
أهذه صخرة أم هذه كبد
قد يقتل الحزن من أحبابه بعدوا
عنه فكيف بمن أحبابه فقدوا
تجري على رسلها الدنيا ويتبعها
رأي بتعليل مجراها ومعتقد
أما نزار قباني فقد سطر ديواناً في رثاء زوجته بلقيس.

رثاء الزوجات في الشعر الشنقيطي:
تتميز قصيدة الرثاء ببساطة البنية

لولا الحياء لعادني استعبار
ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولقد نظرت وما تمتع نظرة
في اللحد حيث تمكن المحفار
فجزاك ربك في عشيرك نظرة
وسقى صدك مجلجل مدرار
ولدت قلبي إذ علتني كبرة
وذوو التمام من بنيك صغار
أرعى النجوم وقد مضت غورية
عصب النجوم كأنهن صوار
نعم القرين وكنت علق مضنة
وأرى بنعف بلية الأحجار
عمرت مكرمة المسالك وفارقت
ما مسها صلف ولا إقتار
فسقى صدى جدث ببرقة ضاحك
هزم أجش وديمة هطلاء
وفيما بعد ومع العصر العباسي بدأ رثاء الزوجات يبرز وينتشر يقول الشريف الرضي في رثاء زوجته¹⁹ :

ذكرتك ذكر لا ذاهل
ولا نازع قلبه والجنان
أعاود منك عداد السليم
فيا دين قلبي ما ذا يدان
عواطف من مقلقات الغرام
يوم دموعي بها أرونان

وفي العصر الحديث فقد زاد انتشار رثاء الزوجات في الشعر العربي فهذا محمود سامي البارودي يقول في رثاء زوجته «عديلة يكن» التي نمت إليه في منفاه بـ«سرنديب» من قصيدة طويلة تبلغ ثمانية وستين بيتاً من بحر الكامل²⁰ :
أيد المنون قدحت أي زناد
وأطرت أية شعلة بفؤادي
أوهنت عزمي وهو حملة فيلق
وحطمت عودي وهو رمح طراد

13 - الشريف الرضي

14 - ديوان محمود سامي البارودي بأشأحه وشرحه علي الجارم ومحمد شفيق معروف دار العودة بيروت

15 - ديوان محمد مهدي الجواهري

16 - أحمد جلال بن الحسن الشعر الشنقيطي في لقرن الثالث عشر الهجري مساهمة في وصف الأساليب جمعية الدعوة الإسلامية العامة

17 - محمد حامد بن ألا عالم جليل وشاعر كبير من أولاد بنعمر الحسين، توفي 1959 له مؤلفات من بينها: ديوان شعراء بتحقيقه الأستاذ أحمد سالم ولد محمدو الطيبة الأولى 1998 انظر ديوانه ص: 125.

في البيت الثاني: تعتادني، ذكر، منها،
مجرحة، منه، بأنياب، لما يوحى به
من أنين وألم، كما جاءت المقاطع
الصوتية الطويلة مصورة أهات الشاعر
وجراحه النازفة في «جار-البدار-الجاري»
- تعودني منها- القلوب- أنياب- وأظفار-
يا أيها الناس- لا، لا.

كما جاء المعجم ناطقا بالحزن والألم
في تكرار لفظ الدمع والبين والفرق
والجروح.

ثم يصور باقي القصيدة تميزها عن
نساء الحي وتعداد خصالها الحميدة
وقد شمل هذا التميز كل الصفات
الخلقية والخلقية التي تميز بين البشر،
كما مثلت سيادة الوحدات الإيقاعية
أو التفعيلات العروضية السالمة تناسبا
مع طبيعة الصفات المنسوبة لأمر عمار
حيث جاءت الوحدة «مستعلن»
سالمة في جميع أبيات المقطع المكون
من سبعة أبيات فشملت ثمان
وعشرين تفعيلة وسيادة الوحدات
العروضية السالمة في القصيدة كلها
يتناسب مع طبيعة الصفات المنسوبة
لأمر عمار والتي يكرسها مجتمع الزوايا
في القرن الرابع عشر الهجري، فالحضور
الفعلي لهذه الصفات إذن يناسب طغيان
التفعيلات السالمة في قوله:

8. يا أيها الناس هل في الحي قاطبة
خود تكافئ فينا أمر عمار
9. قالوا فلانة ذي في الحي جامعة
في الفضل ما جمعت من غير إيثار
10. لا لا وليس على غيد تعاصرها

11. في الحلم فاقت وفي علم وفي خلق
عذب وخلق براه الخالق الباري
12. حورية برزت فيها وقد خبثت
عن هذه الدار إذ حفت بأكدار
13. إن أدبر الغيد عني من تذكرها
فليدبر الغيد ماشاءت من إدبار

14. إذ لا يبالي بوصل الغيد فاقدتها
ولا تباشر أحشائي وأبصاري
15. وليس من أم عمار لنا خلف
وليس يخلف عندي أهلها جاري
ويقول الشيخ محمد أحمد بن الرباني في
رثاء زوجته فاطمة بنت محمد المختار
من قصيدة تبلغ سبعة وعشرين بيتا
«طويل»¹⁸

تعودت يا دنيا عقيب وصالك
صدودا وهجرا مؤذنا بانفصالك
فكم غافل سألته فأصابه
على غرة بالسلم رشق حبالك
ورب فتى جرعت صابا وعلقما
يشوب قبيح الصرم حسن دلالك
متى تطبیه بالدلال فاعجلا
وشربا زعاقا بعد صفو زلالك
كأنك من نهج الضلال بمعزل
وأنت عجوز في قديم ضلالك
فهو يبدأ بهذه المقدمة العامة التي
تصف الدنيا على حقيقتها وأنها زائلة
لا محالة ومن ثم تؤكد حتمية الموت
والفناء، ثم يتحدث عن فاجعته التي
أصابته فيقول:

فجعت بأمر نابي برح وقعه
فبت بليل من همومي حالك
بخير فتاة متعت بحياتها
وخير فتاة قد مضت في الهوالك
فلو كنت يوما مالكا لفدائها
سمحت بما لم تحوه كف مالك
أقامت لدينا ست عشرة حقبة
ولكنما الدنيا حبال المهالك
ثم يتوجه في بقية القصيدة بالحديث
إلى مريثته فيقول:
أفاطم لا أنسى مقامك عندنا
سرورا ولا أنسى زمان وصالك
تذكرنيك الشمس عند طلوعها
وإن جلل الأفق الدجى فكذلك
تساميت في العلياء حتى كأنما

جباه نساء الحي تحت نعالك
وشم شروري دون قدرك رتبة
وعد حصاصها دون عد خصالك
فجالت عذارى الحي معك وإنما
مجال عذارى الحي دون مجالك
مقالك في الأنداء غير مفند
وفعلك أجدى في الورى من مقالك
شمالك لا تدري نوال يمينها
ويمناك لا تدري نوال شمالك
ويختم بقوله:
أفاطم ما هذا التصامم والجفا
فما هكذا عهدي بحسن امتثالك
ألا خبريني كيف حالك فاطم
فلا كان الليل بعدي بحالك
أهان علي الخطب فيك عمومه
ووشك انتقال الكل بعد انتقالك
وكل ابن أنثى من بعد فقدك سالك
على رغبه يوما بتلك المسالك
ولست من الأحباب أول هالك
ولست من الخلان آخر هالك
ألا فاعلمي أني لرزك أسف
وأني كتيب لانصرام حبالك
ويقول محمذن فال ولد أحمد فال¹⁹ في
رثاء زوجته سكينه:
الموت منهل زعاق المشرب
سيان من شرب أم لم يشرب
فإنه سهم به يصاب
من لم يصب غدا به مصاب
من حل بالغد مضيق الرمس
كدخل لرمسه بالأمس
وواقع غدا كمثل الواقع
بالأمس من مواقع المواقع
فما مضى مضى وغير ماض
أمضى من الأمر القريب الماضي
ما يفعل الجاهل بعد حين
تفعله أرباب الحجا في الحين
وذاك تقوى مالك قهار
يأخذ بالليل والنهار

18 - ديوان الشيخ محمد أحمد بن الرباني 1353هـ / 1934هـ تحقيق الإمام محمد محمود بن أحمد بوره الرباني مراجعة وتقديم د أحمد بوره بن محمد محمود الرباني، تصمم وإخراج مكتب البحث والطباعة أوكشوط موريتانيا ص 124.
19 - أمدي بالنص حفيد الشاعر الدكتور محمد بن محمد فال بن القاهي أستاذ بالمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية.

المصادر والمراجع:

1. الأزهرى أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، الدار المصرية للتأليف.
2. ابن قتيبة، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت لبنان.
3. أحمد (جمال) بن الحسن، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري/ مساهمة في وصف الأساليب، جمعية الدعوة الإسلامية العامة.
4. بشرى محمد علي الخطيب، الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، كلية الآداب، جامعة بغداد.
5. ديوان طرفة بن العبد.
6. ابن منظور، لسان العرب.
7. ديوان لبيد بن ربيعة.
8. ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر.
9. ديوان محمود سامي البارودي، تح: علي الجارم ومحمد شفيق معروف، دار العودة بيروت.
10. ديوان الشيخ محمد أحمد بن الراباني، تح: محمد محمود بن أحمد يوره الراباني، تصميم وإخراج مكتب البحث والطباعة انواكشوط موريثانيا.
- 11- ديوان محمود حامد بن آلا تح: أحمد سالم ولد محمود، ط1، 1998.

بن فتى 1312/1364 هـ في الترحم على زوجته فاطمة
راحما ألا أنني أستودع لله فاطما
ليرحمها فضلا كفى لله
وأسأله رحمتي تعم جميعنا
وأسأله رحمتي تخصص فاطما

خاتمة

- أول ملاحظة يمكن تسجيلها في هذا المقام هوندره رثاء الزوجات في الشعر العربي القديم بصفة عامة والشعر الشنقيطي بصفة خاصة، إذ لم نجد فيما وجدنا من شعر القوم نصا رثائيا في دواوين الجيل الأول أي شعر القرن الثالث عشر الهجري وهو ما يمكن تفسيره بوفاء الشعراء الشناقطة لأسلافهم من شعراء العرب القدامى.

- أن بناء قصيدة رثاء الزوجات لا يخرج عن بناء قصيدة الرثاء المعهودة في التراث العربي.

- أن مريثة المرأة الشنقيطية لا تتميز دلاليا عن رثاء الرجل من حيث حتمية الموت وذكر خصال المريثة وألم الشاعر وحسرتة.

- اشتراك الشعراء الشناقطة في القيم المميزة للمريثة فصاحة ابن «ألا» لا تكافئها امرأة ولا تسد مكانها وتماثلها، والشيء ذاته عند الشيخ محمد أحمد وعند القاضي ولد أحمد فال، كما يشترك هؤلاء الشعراء بأنهم عبروا عن أحزانهم أصدق تعبير فابن ألا سكب الدموع وابن الراباني فجع وابن أحمد فال يسلم بالقدر ويرجو اللقاء في الدار الآخرة.

فالناس سفر كلهم مهاجر
فمنهم برو منهم فاجر
فالكل قادم على الخلاق
وفعله بعد اللقاء لاق
فليتأهب من له عقل إلى
لقي من كان اللجا والموتلا
سهم القضاء إن تصب لا تجزع
وإن تشأ على الحبيب فاجزع
سكينه ما سكينه إنها لها
خلق نفى عني الكرى والولها
ويسجل شهادته فيقول:
آخر عهدنا بها تقرر
ذكر الإله وله تكرر
ما إن رأيت مثلها والعبد
يسأل عما منه نطقا يبدو
فطورا الذكر الجميل الأسنى
وطورا أسماء الإله الحسنى
حازت شهادة والارتحال
زوال جمعة ونعم الحال
حازت شهادة وحزنا الفخرا
في هذه الدار وتلك الأخرى
ويختم بالدعاء في قوله:
يارب يا تواب يا مهيمن
ويا رحيم يا كريم مؤمن
يا من لمضطر دعا مجيب
أجب لي الدعاء يا مجيب
جاز سكينه بجزائك الحسن
إن سكينه فعلها فينا حسن
وجازها ووالديها عنا
أفضل ما يجزى به من منا
واسمح وتب واعف وعاف وارحم
والطف بنا في حالة المزدحم
وأولنا رضاك والشمع اجمع
في جنة يوم اللقا بالجمع
زوجين راضيين مرضيين
مجاورين سيد الكونين
وأصلح الأهلين والبنين
طرا بجاه المصطفى الأمين
وللشيخ محمد عبد الرحمن بن أبي بكر



الدكتور عبد الفتاح منابه سيدي

نظامية اللغة لدى المدارس اللسانية: المعالم والتجليات

ملخص:

تُعدّ اللغة نظاماً متكاملًا من العلامات والرموز التي تحكمها قواعد وعلاقات داخلية دقيقة، وقد شكّلت فكرة «نظامية اللغة» محوراً هاماً وعنصرًا قارًا في الدراسات اللسانية الحديثة، غير أنها اختلفت في تفسير طبيعة هذا النظام ووظائفه وآليات اشتغاله، فبينما ركزت البنيوية على العلاقات الداخلية بين العناصر اللغوية، نصادف المدرسة التوليدية وسّعت من فكرة «نظامية اللغة» من مجرد كونها بنية ظاهرة إلى جعلها قواعد عقلية داخلية تمكّن الإنسان من إنتاج عدد لا يحصى من الجمل فضلًا عن الكلمات، وهكذا أضحت اللغة - حسبها - نظامًا ذهنيًا فطريًا تحكمه قواعد توليدية دقيقة، وبالمقابل نجد الوظيفية والتداولية قد ربطتا «نظامية اللغة» بوظيفتها التواصلية معتبرتين أن النظام اللغوي لا يُفهم بمعزل عن مقتضيات السياق وظروف الاستعمال والمقام.

الكلمات المفتاحية:

اللسانيات الحديثة، نظامية اللغة، البنيوية، التوليدية، الوظيفية، التداولية

تضارب بين الأجزاء في الدراسة الكلية.

1. المدرسة البنيوية (دي سوسير): النظام المغلق لعلامات اللغة

تُعدّ البنيوية المعلم الأول الذي أرسى دعائم اللسانيات الحديثة، حيث نقلت التركيز من تطور اللغة عبر الزمن (الدراسة الدياكرونية) إلى دراستها في لحظة معينة كنسق مستقل (الدراسة السانكرونية).

النظام اللغوي:

- اللغة كنسق: (Système) اللغة نظام من العلامات تكتسب فيه كل علامة قيمتها لا من ذاتها، بل من

ج- الاقتصاد: أي الإيجاز والتركيز مع التحليل المدقق ميدانيا وتوظيف الأجهزة لدراسة الأصوات بتدقيق مثلاً. «
لم تختلف المدارس اللسانية الحديثة حول كون اللغة «نظاماً»، ولكنها اختلفت جذرياً في تفسير طبيعة هذا النظام، وآلية عمله، والغاية منه، تحاول هذه المداخلات تتبع ملامح ومعالِم «نظامية اللغة» عبر أبرز المدارس اللسانية.

مقدمة

إذا كان البحث اللساني «يتناول بالدراسة الحقائق اللغوية المشتركة بين اللغات البشرية بغض النظر عما بينها من قرابة وعلاقات تاريخية. موضوعها اللغة وعلى هذا الأساس تستعمل اللسانيات اللغة لدراسة اللغة بذاتها ولذاتها كما قال دي سوسير وهذه خاصية تخالف بها غيرها من العلوم وينبني منهجها على: أ- الشمولية: أي يبحث ويدرس كل ما يتعلق بالظاهرة اللسانية. ب- الانسجام: ويستلزم إبعاد أي

معرفي، فطري، ومبرمج بيولوجياً في الدماغ البشري (النحو الكلي - Universal Grammar) - ثنائية الكفاءة والأداء

(Competence / Performance):

الكفاءة هي المعرفة الضمنية العميقة بقواعد النظام اللغوي لدى المتكلم، وهي موضوع اللسانيات، أما الأداء فهو الإنجاز الفعلي الذي قد تعتريه الأخطاء. التوليد والتحويل: النظام اللغوي يتكون من قواعد محدودة قادرة على توليد عدد لا متناه من الجمل السليمة، عبر تحويل البنى العميقة (المعنى) إلى بنى سطحية (الأصوات والكلمات).

بيد أنه لم يسلم من سهام الانتقاد وربما كان التحدي الواضح الذي أصاب نظرية تشومسكي الأصلية قد حدث على أيدي ما بعد التشومسكيين فيما يعرف باسم نظرية الحالة النحوية *Case grammar* وقد رأينا في نهاية الفصل السابق أن تشومسكي قد ميّز وفصل في كتابه «مظاهر النظرية النحوية» بين أمرين في التركيب العميق للجملتين هما: المسند إليه أو الفاعل والمفعول في البنية السطحية وقال إن ذلك في الوظائف الدلالية للتركيب العميق للجملتين، غير أن بعض علماء اللغة لم يوافقوا على مقولة التفرقة هذه بين المسند إليه والمفعول وقالوا إن هذا الأمر شكلي ونسبي، لأن تعريف المسند إليه أو المفعول يختلف من لغة إلى أخرى، وبناء على

يقوم عليه من استقراء للمادة اللغوية وتحليلها، إلى الوصف والتفسير في الوقت نفسه؛ والتفسير هنا يركّز على اللغة من داخلها، وليس من خارجها، فانصبّ اهتمام التوليديين تبعاً لذلك على صياغة قواعد عامة يمكن أن تشمل سائر اللغات. وصياغة مثل تلك القواعد يفرض الاستناد إلى نماذج مُفترضة مُستنبطة وفقاً لمعايير منطقية ورياضية، والتغيير الذي طبع النظرية اللسانية مع تشومسكي لا يحجب عنا إفاذته من مدارس لسانية سابقة كالتوزيعية * (Distributionalisme) * مُثّلة فيما قدّمه هاريس * (Harris) * الذي نحا نحواً مُبايناً لأستاذه بلومفيلد * (L. Bloomfield) * وخصوصاً ما اعتمده في وصف اللغة من طرائق تحويلية³

من هنا أحدث نعوم تشومسكي ثورة معرفية جديدة بالتوقف نقلت اللسانيات من السلوكية والوصف الظاهري للنظام إلى دراسة «الآلية العقلية» التي تنتج هذا النظام، وهكذا «يقدم النحو التوليدي نفسه بوصفه يمثل مجموع القواعد التي من شأنها أن تقدم وصفاً واضحاً لكل البنى ولا شيء غير بُنى جمل اللسان»⁴

ملاحج النظام اللغوي:

النظام كملكة بيولوجية: النظام اللغوي ليس مجرد شبكة من العلامات الاجتماعية، بل هو نظام

موقعها واختلافها عن العلامات الأخرى داخل النظام، ولذلك «نجح سوسير في تقديم تعريف تقني مهم لمصطلح «اللسان» كونه قد استطاع تحديد موضوع اللسانيات/اللسان كنسق من العلامات يضمّر مجموع الأفراد المتكلمين لأي لسان كان معرفة بمجموع العلامات، حيث تجعلهم هذه المعرفة قادرين على ضمان الفهم بينهم بصورة منتظمة داخل المجموعة اللسانية»².

ثنائية اللغة والكلام (Langue / Parole): النظام اللغوي المجرد والمشارك بين الجماعة هو «اللغة» (Langue)، وهو موضوع اللسانيات الحقيقي، بينما «الكلام» (Parole) هو الاستخدام الفردي العرضي لهذا النظام.

العلاقات النظامية: يعمل النظام وفق محورين: العلاقات التركيبية (الحضور والتجاور) والعلاقات الاستبدالية (الغياب والاختيار).

2- المدرسة التوليدية التحويلية (تشومسكي): النظام الذهني الفطري

غير خاف أن الاتجاه التوليدي التحويلي إنما نشأ على أنقاض اللسانيات البنيوية، لذا «كان من الطبيعي أن تقود الانتقادات التي وُجّهت إلى البنيويين إلى البحث عن أنموذج جديد يجيب عن الأسئلة العالقة، وينحو بالبحث اللساني منحنىً مغايراً، ولتحقيق هذا المسعى تغيّرت وجهة البحث من الاهتمام بالوصف وما

2 - ماري نوال، غاري برور: المصطلحات الفائتة في اللسانيات، تر: عبد القادر فهم، ط1، 1، 2007 ص 66
3 - حافظ إسماعيل علوي: اللسانيات في الثقافة العربية، ط1، دار الكتاب الجديد، 2009 ص 217
4 - ماري نوال، غاري برور: المصطلحات الفائتة في اللسانيات، ص 58

ذلك فهما غير ذي أهمية واضحة في تحديد معنى الجملة.⁵ وهكذا انفتح الباب على مصراعيه أمام بروز مدرسة أخرى أدق نظراً وأشمل تأملاً.

3. المدرسة الوظيفية (ياكوبسون، هاليداي):

يُعَدُّ الاتجاه الوظيفي ثالث اتجاهات البحث اللساني المعاصر، وتعود أصوله إلى جملة من الأعمال والأبحاث اللسانية الحديثة كأعمال حلقة أو «مدرسة براغ»، وأعمال اللسانيين التشبيكيين المعروفة بالتوجه الوظيفي للجملة، والمدرسة النسقية (لندن). «وقد شكّلت اللسانيات الوظيفية أحد أشكال التطورات المتلاحقة التي عرفتتها المدرسة البنيوية ممثلة بالأب الروحي سوسير الذي ركّز على وظيفة اللغة باعتبارها وسيلة من وسائل التواصل، إن لم تكن أهمها على الإطلاق، وهو الجانب الذي أولاه أتباعه أهمية خاصة من خلال دراساتهم للغة والبحث عن الوظائف التي تؤديها عناصرها وأدواتها التعبيرية. بيد أن أبرز الدراسات والتطورات التي عرفها هذا الاتجاه، شكّلتها «حلقة براغ» بفضل أعمال تروبتسكوي * (Troubetzkoy)، ومارتينييه * (A. Martinet)، وجاكبسون * (Jakobson) وغيرهم، فكانت مفاهيم وبحوث هذه المدرسة منطلقاً لبحوث ودراسات أخرى استثمرت مفاهيم هذا الاتجاه. ومن أبرز من سار على هذا

النهج دانيس * (Danés) وفيرباس * (Firbas) وسغال * (Sgall) . . . وغيرهم الذين عرّفوا بوجهتهم الوظيفية للجملة، وأكدوا على مفهوم مركزي يتمثل في ما أسموه بـ «ديناميكية التواصل». إن التواصل في لحظة معينة ليس شيئاً ثابتاً كما قد يوحي إلى ذلك نموذج جاكبسون حول وظائف اللغة⁶»

ومن مبادئها أن «التواصل حركية وديناميكية مستمرة تحمل بنية اللغة آثارها الواضحة. إن الجملة ليست كلمات⁷» رفضت المدرسة الوظيفية (ابتداءً من حلقة براغ وصولاً إلى اللسانيات النظامية الوظيفية لهاليداي) فكرة عزل النظام اللغوي عن سياق استخدامه والمجتمع الذي ينشط فيه.

- ملامح النظام اللغوي:
- الوظيفة تخلق النظام: تشكل النظام اللغوي وتطور استجابة للحاجات التواصلية للمجتمع الإنساني. لا يمكن فهم بنية اللغة إلا بفهم الوظائف التي تؤديها.
- النظام كخيارات للمعنى: عند هاليداي، اللغة «نظام من الأنظمة» (System of Systems) إنها شبكة من الخيارات المعرفية والاجتماعية التي ينتقي منها المتكلم ما يناسب سياق الحال لتحقيق معنى معين، وكذا تقوم اللغة، في نظر الوظيفيين، بوظائف متعددة، لا بوظيفة واحدة، وهذا ما نجده عند جاكبسون الذي حصر وظائف

اللغة في ست وظائف، وهاليداي الذي لاحظ أن الأغراض التي يمكن أن تستعمل اللغة في تحقيقها غير متناهية، وتختلف باختلاف العشائر اللغوية والأنماط الثقافية، وعلى الرغم من تعدد هذه الوظائف فإن ما يهم دارس اللغة منها يبقى محدوداً؛ لذلك يُجمع الوظيفيون على أن اللغة أداة للتواصل بين الكائنات البشرية، فهي ظاهرة تداولية بامتياز. صحيح أن الوقائع لانهاية، ومع ذلك فإن كل لغة تمتلك إمكانية التعبير عن هذه الوقائع لتحقيق التواصل⁸»

- السياق جزء من النظام: النظام اللغوي لا يكتمل إلا بإدماج السياق (الثقافي والظرفي)، لأن المعنى يتحدد بالاستعمال.

4. المدرسة التداولية

ملامح النظام اللغوي من خلال ثنائيات تداولية ومبادئ لسانية ارتكزت على: اللغة والاستعمال، الوظيفة، النظام التواصلية لأنه «حين يتعلّق الأمر بتحديد معنى لأحد العناصر اللغوية، فأفضل وسيلة لهذا هي أن نحدد أولاً تعريفه الإشاري - متحسسين تناقضه أو تطابقه مع مجمل المعاني الأخرى في نفس المستوى الوظيفي - حتى ندرك في النهاية، بانتقالنا من مستوى إلى آخر حتى نصل إلى حد البنية اللغوية، تركيبة العناصر المكوّنة لمعناه الكامل. أولاً، وفي بداية الأمر، لابد من الحفاظ على الفواصل القائمة بين القيم

5 - جون ليونز نظرية تشومسكي اللغوية تر: حلي خليل، ط1 دار المعرفة الجامعية 1985 القاهرة ص 169

6 - حافظ إسحاق علوي: اللسانيات في الثقافة العربية ص 349

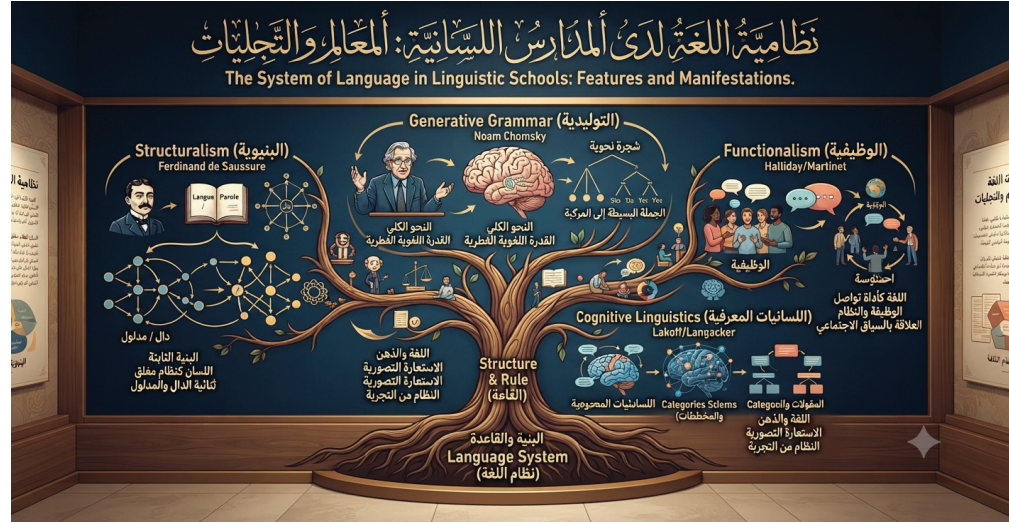
7 - نفسه ص 350

8 - حافظ إسحاق علوي: اللسانيات في الثقافة العربية ص 350

من الجمل بقواعد محدودة. وفي المقابل، أعادت الوظيفية للغة بعدها الاجتماعي والتواصل، مؤكدة أن النظام لا يفهم بمعزل عن وظائفه، لتتوج التداولية هذا المسار بربط النظام اللغوي بسياق الاستعمال وتجربة الإنسان الذهنية والجسدية في آن معا. وهكذا يتبين أن فهمنا المعاصر لـ«نظامية اللغة» أضحي توليفة متكاملة، تستفيد من الوصف البنيوي الدقيق، والتفسير الذهني التوليدي، والربط الوظيفي التداولي، مما يجعل اللسانيات الحديثة علماً تراكمياً بامتياز، تتكامل فيه المناهج ولا تتناقض وإن لم يبدُ ذلك إلا بقسط من التأمل غير يسير.

مصادر ومراجع

- السعيد شنوقة: مدخل إلى المدارس اللسانية، ط1 المكتبة الأزهرية، القاهرة مصر 2008
- برتيل مالبرج: مدخل إلى اللسانيات تر: السيد عبد الظاهر، ط1 المركز القومي للترجمة القاهرة مصر 2010
- جون ليونز نظرية تشومسكي اللغوية تر: حلمي خليل، ط1، دار المعرفة الجامعية القاهرة مصر 1985
- حافظ إسماعيل علوي، اللسانيات في الثقافة العربية، ط1، دار الكتاب الجديد 2009
- ماري نوال، غاري بريور، المصطلحات المفاتيح في اللسانيات، تر: عبد القادر فهم 1، سيدي بالعباس، الجزائر 2007



التوليدي، والربط الوظيفي التداولي، والتأصيل المعرفي الإدراكي.

خاتمة

في ختام هذه المحاولة البحثية، يتضح جلياً أن مفهوم «نظامية اللغة» لم يكن يوماً محل خلاف بين المدارس اللسانية الكبرى، بل كان القاسم المشترك الذي جمعها، بيد أن الاختلاف كان في تفسير طبيعة هذا النظام وآليات اشتغاله والغاية منه.

هكذا يتبين أن مفهوم «نظامية اللغة» شكّل أساساً مشتركاً وجسراً مكيماً عبرته المدارس اللسانية، رغم اختلافها الواضح عند التأمل في تفسير طبيعته ووظيفته.

فقد أرست البنيوية الدعائم الأولى حين نظرت إلى اللغة كنسق مغلق من العلامات تكتسب قيمتها من علاقاتها الداخلية، ثم جاءت التوليديّة التحويلية لتنقل البحث اللساني نقلة نوعية، إذ ردت النظام اللغوي إلى ملكة فطرية مُبرمجة في عقل الإنسان، قادرة على توليد عدد لا متناهٍ

الأسلوبية الداخلية وغيرها من القيم (بما في ذلك كل الدلالات) من جانب، ومن جانب آخر القيم والوظائف السياقية، وبعضها ينتمي إلى الحقل الصرفي، والأخرى تبدو محكومة بالعلاقات النحوية، والعلاقات الدلالية الناجمة عن السياقات المختلفة التي يظهر فيها أحد العناصر هي التي تشرح الفكرة السائدة حول اللامعنى للكلمة خارج السياق⁹»

لئن نظرت البنيوية إلى النظام اللغوي كـ«رقعة شطرنج» تهمنها فيها العلاقات بين القطع بمعزل عن محيطها وسياق ورودها، فإن التوليديّة نظرت إليه كـ«خوارزمية حاسوبية» مدمجة في العقل البشري، بينما رآته الوظيفية كـ«أداة عمل» مصممة اجتماعياً للتواصل، لتأتي التداولية وتعتبره «مرآة» تربط النظام التواصل في سياق الاستعمال بتجربة الإنسان الجسدية والذهنية برمتها.

إن فهمنا المعاصر لـ«نظامية اللغة» لم يعد حكراً على مدرسة دون أخرى، بقدر ما أصبح توليفة متكاملة تستفيد من الوصف البنيوي الدقيق، والتفسير الذهني

9 - برتيل مالبرج: مدخل إلى اللسانيات تر: السيد عبد الظاهر ط1 المركز القومي للترجمة القاهرة مصر 2010 ص 131



د. أبو بكر أحمد
أستاذ مؤهل في الأدب العربي
جامعة العلوم الإسلامية

من مظاهر احتذاء الشعر الشنقيطي للشعر الجاهلي (مقارنة بين نصحيتين للقيط بن يعمر ومحمد بن أحمد الديماني)

مقدمة

على الرغم من أن بعض الشعراء العلماء الشناقطة اشتهر بالفقه والعلوم الشرعية أكثر من شهرته بالشعر، إلا أن إعادة النظر في بعض أشعارهم الفقهية تثبت أنها ليست خلوا من مقومات الفن، بل تبدو - أحيانا - محملة بذائقة أدبية وفنية لم يستطع الفقه ومصطلحاته المهيمنة طمسها وإخفاءها.

ولا شك أن من هؤلاء الشعراء العلماء العلامة الشاعر: محمد بن أحمد، الذي يلمس قارئ شعره في بعض قصائده مستوى لا بأس به من الحرص على تجويده، وبذل الجهد في سبك أساليبه.

وانطلاقا من ذلك، سنبدل في هذا البحث - بحول الله وقوته - جهدنا في قراءة قصيدة نصحية مطولة من ديوان العلامة الشاعر المحدث: محمد بن أحمد الديماني (ت1358هـ) لمقارنتها بعينية لقيط بن يعمر الشهيرة في نصح قومه، ودعوتهم لإصلاح مجتمعهم وقيادته.

وقد اقترحت تقسيم هذا البحث وفق الخطة الآتية:

1. ترجمة الشاعر الجاهلي: لقيط بن يعمر الإيادي

2. ترجمة الشاعر الموريتاني:

محمد بن أحمد الديماني

3. التعريف بالقصيدتين

المدرستين

4. قراءة فنية مقارنة للقصيدتين

ملاحظات ختامية.

1- ترجمة الشاعر الجاهلي:

لقيط بن يعمر الإيادي
(ت250ق هـ)

هو شاعر جاهلي فحل، من أهل الحيرة. كان مقلا، قال صاحب الأغاني إنه: «شاعر جاهلي قديم مُقل، ليس يعرف له شعر غير هذه القصيدة وقطع من الشعر لطاف متفرقة». وذكر ابن الشجري أنه كان كاتباً في ديوان كسرى، وكان يحسن الفارسية. واتصل بكسرى «سابور» ذي الأكتاف، فكان من كتابه والمطلعين على أسرار دولته، ومن مقدمي تراجمه. ولم يكن بيد الناس من شعره في زمن صاحب الأغاني إلا قصيدة كتب بها إلى قومه يحذرهم ما اعترمه كسرى من غزوهم وقتالهم، وقطع أخرى لطاف متفرقة، فبحسب رواية ابن الشجري، وفيما قاله أبو الفرج ما يقويها وإن لم يصرح بذلك. وكان لقيط قد خدم الأكاسرة وكتب لهم، فهو أقدم من بلغنا خبره ممن أتقن الفارسية من العرب وأجدرهم بأن يتأثر بها شعره.

ولكن القصيدة التي بقيت له وانتهت إلينا تتميز من شعر ذلك العهد بأنها نسق واحد لا خلة فيه ولا وثبة، وأنها لا تبدأ معنى حتى تتمه وتستوفيه، ولا تنتقل عنه إلى آخر حتى يكون هو الذي أدى إليه واقتضاه. ولعل خير ما يدل على مذهب الشاعر ويكشف عن طريقته إثبات أبيات منها تجمع إلى وضوح الدلالة كثيرا من الفائدة.

فلقيط بن يعمر بن خارجة الإيادي: هو صاحب القصيدة التي مطلعها:

«يا دار عمرة من محتلتها الجرعاء...

هاجت لي الهمم والأحزان والوجع» وهي من غرر الشعر، بعث بها إلى قومه «بنّي إياد»، يندهرم بأن كسرى وجه جيشا لغزوه، وسقطت القصيدة في يد أوصلتها إلى كسرى، فسخط عليه، وقطع لسانه، ثم قتله. وللقيط ديوان شعر مطبوع.¹

2- ترجمة الشاعر

الموريتاني:

محمد بن أحمد الديماني
(1290-1358هـ)

1- نَسَبُهُ: هو محمد بن بابكر بن أحمد بن المختار المعروف بـ«انجبان» بن مَحْنُص بن حَامِدَت بن أَشْفَغ يَحْيَى بن أحمد شَلَل المكنى «أبا مَيْجَة» بن

1 - انظر ترجمته في: الأغاني 20: 23 ومختارات ابن الشجري: الصفحة الأولى: 18 والشعر والشعراء لابن قتيبة: طبعة الحلبي 151 - 154 وهو فيه: لقيط بن «معر» وعلق مصححه بترجيح «يعمر». ومعجم ما استعجم 1: 72 وفيه: كان لقيط مجوساً عند كسرى حين بعث بقصيدته إلى قومه يندهرم. وأشعار الشعراء السنة الجاهليين: ص206. والأعلام للزركلي: 5/ 244.

2017².

التعريف بالقصيدتين المدروستين:

تعد العينية النصحية للقيط بن يعمر الإيادي من أشهر شعره، إن لم نقل إنها أشهره مطلقاً، فهو (ينذر قومه غزو كسرى إياهم، وكان لقيط كاتباً في ديوان كسرى؛ فلما رآه مجمعا على غزو إياد كتب إليهم بهذا الشعر؛ فوق الكتاب بيد كسرى، فقطع لسان لقيط، وغزا إياداً: يا دارَ عمرةٍ من محتلتها الجرعا

هاجَتْ لي الهمُّ والأحزانُ والوجعاً)³ يقول الرافعي: (وعندنا أن شعراء الجاهلية لو قدر لهم أن يسخروا الشعر في السياسة والاجتماع الراقبي «الديموقراطي» لقلدهم الإسلاميون في ذلك وبلغوا بهذا النوع مبلغ الكمال، لكن من أين للعرب سياسة الملك ونظام الاجتماع؟ على أنهم مع ذلك لم يهملوا نوعاً من الشعر السياسي، وإن كان قليلاً بينهم لقلة البواعث عليه، كقصيدة لقيط بن يعمر الإيادي، التي ينذر بها قومه غزو كسرى إياهم، وكان كاتباً في ديوانه، ويعلمهم وجه الحزم في تدبير أمرهم، وسياسة مجتمعهم، واختيار من يلقون إليه المقادة في ذلك، وهي شهيرة متداولة)⁴.

أما رائية الشاعر الشنقيطي: محمد بن احميد، فتعد أطول قصائده في غرض النصح والإرشاد، بل إن هذه القصيدة هي أطول نصوص ديوان هذا الشاعر؛ إذ بلغت 61 بيتاً، وقد

يعقوب بن ديمان بن ألع موسى بن مهنض أمغر بن عامريل بن علي التونكلي. وأمه فاطمة بنت أحمد (أبيي) بن سيد بن ألياً بن الفضل بن الكريم بن أحمد شلل (أبي ميجة).

2- مؤلفاته: ترك الشيخ محمد بن أحميد رحمه الله تعالى- مؤلفات عديدة في الفقه المالكي، والسيرة النبوية، ومصطلح الحديث.. منها مثلاً:-

1- طريقة الصلاح وجالبة الفلاح الآتية من الحديث الشريف بالاصطلاح (نشرتها ضمن الجزء الأول مجموع من أنظام المؤلف سنة 2017).

2- رسالة في حكم خروج النساء (قدمها أحد طلاب جامعة شنقيط الحرة بنواكشوط قبل سنوات لنيل درجة الماجستير، ودرسها أحدهم في المعهد العالي قبل سنوات أيضاً).

3- مجموع في أرجحية القبض الخالي من الاعتماد: وهو رد على كتاب عنوانه: «القول الفصل في تأييد سنة السدل»، لمؤلف مصري اسمه محمد عابد، رجح فيه سدل اليمين على قبضهما في الصلاة. (وهو ضمن المجموع المطبوع).

4- ديوان شعري في حدود الثلاثمائة بيت: أغلبه في المدح والنصح والإرشاد، وقد سبق لنا جمعه وتحقيقه تحقيقاً أولياً سنة 2005 أثناء تخرجنا في جامعة نواكشوط، وألحقناه بالمجموع المطبوع من مؤلفات المؤلف سنة

رواها المختار بن حامد في موسوعته الثقافية⁵. ويتسم هذا الغرض الشعري -في مجمله- بالوضوح والميل إلى المباشرة في الخطاب، واستعراض الأدلة، وربما افتتحه الشاعر بالحكمة، أو المزج بين الوعظ والتوجيه⁶. ويعد النظم التعليمي من أهم أغراض شعر العلامة المحدث محمد بن احميد، ويشمل هذا الغرض (النصح والإرشاد، والحث على الأخلاق الحميدة، والآداب العامة، كما يشمل أيضاً الدعوة إلى الإصلاح الشامل للمجتمع: اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً)، فضلاً عن الحث على طلب العلم، والابتعاد عن صحبة الجهال. ويتسم هذا النوع من النظم -في مجمله- بالوضوح، والميل إلى المباشرة في الخطاب، واستعراض الأدلة، وربما افتتحه الشاعر بالحكمة كما هو الحال في إحدى مطولاته النصحية التي افتتحها بقوله:

تخالف الدهر يبدي دائماً عبداً
يبدي سروراً ويبدي تارة عبداً
ترحال أبنائه في كل أونة
يكفيك معتبراً إن كنت معتبراً
من بعد ما عمروا الدنيا بزهرتها
وتم ما عمروا من بعدهم دُثراً
فالآن إن تقفوا على مساكنهم
لم تبصروا عثراً ولا أثراً⁷
فهذه القصيدة مطولة في غرض النصح والإرشاد، وقد جاءت ضمن الشعر الإصلاحية، الذي يسعى إلى إصلاح المجتمع؛ من خلال تجديد الدين في نفوس الناس، والسعي إلى الإصلاح

2 - ابن احميد: محمد: مؤلفات العلامة محمد بن احميد البناي البومبي ورسائله: اعتنى به وحققه: د. أبو بكر احميد، (ط1) مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء- المغرب، 1438هـ / 2017م، ج1/ ص13-18).

3 - ابن الشجري: (ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة، المعروف بابن الشجري (المتوفى: 542هـ): مختارات شعراء العرب، ضبطها وشرحها: محمود حسن زياتي، (ط1) مطبعة الاتحاد، مصر، 1344هـ- 1925م، ص1).

4 - الرافعي: (مصطفى صادق: المتوفى: 1356هـ): تاريخ آداب العرب، (ط1) دار الكتاب العربي، بيروت، ص90).

5 - ابن حامد: المختار: حياة مورطانيا: ج16/ مجموعات شمسية: (ص 87-90).

6 - ابن احميد (أبو بكر): النصح الديني والسجل الفقه في شعر العلامة محمد بن احميد: بحث منشور في مجلة منارة الفتوى أهككة، العدد 11/ شعبان 1443هـ/ 2022م، ص131.

7 - مؤلفات العلامة محمد بن احميد ورسائله: ج1/ ص168-169.



شوكاً وأخز يجني الصَّابَ والسَّلْعَا
لو أنَّ جَمْعَتَهُم رَامُوا بِهِدَّتَه
يَشْمُ الشَّمَارِيخَ مِنْ تَهْلَانٍ لَانْصَدَا
في كل يوم يَسْنُونُ الْحَرَابَ لَكُمْ
لا يَهْجَعُونَ إِذَا مَا غَافَلَ هَجْعًا⁹

لقد تَخَلَّصَ الشاعر لقيط في
هذا المقطع الطويل إلى الغرض
الأساسي لقصيدته وهو دعوة
قومه (إياد) إلى الاستعداد
لحرب ضروس تنتظرهم على
يد (كسرى)، غارقا في التهويل
بضخامة جيشه، وكثرة عدده،
وقوة عُدَّتِه، حتى إنهم لو راموا
اقتلاع الجبال لاقتلعوها.

ابن احميد:
يا مرشدين بأيدي المومنين خذوا
للنهج يا معشر السادات والكبرا
دعاكم المصطفى لنصر ملته
صلى عليه الذي أعلى به مضرا

فيها.
أما الشاعر الشنقيطي محمد
ابن احميد، فقد افتتح رائيته
الشهيرة في نصح قومه بهذه
المقدمة الجامعة بين الحكمة
والوعظ، قائلا:

تخالف الدهر يبدي دائما عبرا
يبدي سرورا ويبدي تارة عبرا
ترحال أبنائه في كل آونة
يكفيك معتبرا إن كنت معتبرا
من بعد ما عمرو الدنيا بزهرتها
وتم ما عمروا من بعدهم دثرا
فالآن إن تقفوا على مساكنهم
لم تبصروا عثرا كلا ولا أثرا
سيقوا لدار خلود لا يفوز بها
منهم سوى من بدين الله قد ظفرا⁹

لقد خلت هذه المقدمة من
الغزل، واستعاضت عنه بالوعظ
والحكمة، وكأنها تريد القول إن
صاحبها عالم شنقيطي يحرص
على الوعظ والاعتبار بتغيير
أحوال الدنيا، لا شاعر جاهلي
ينشغل بأوصاف محبوبته عن
تغيير الحال وتبديلها.

المقطع الثاني: التلخص إلى الغرض الرئيسي:

لقيط:
بل أيها الرَّاكِبُ المُزْجِي على عجل
نحو الجزيرة مرتادا ومُنْتَجِعَا
أبلغ إيادا وخلل في سراتهم
إني أرى الرأي إن لم أعص قد نصعا
يا لهف نفسي إن كانت أموركم
شئى وأحكم أمر الناس فاجتمعوا
ألا تخافون قوما لا أبالكم
أمسوا إليكم كأمثال الدُّبَا سرعا
أبناء قوم تأوؤكم على حنق
لا يشعرون أضُرَّ الله أم نفعا
أحرار فارس أبناء الملوك لهم
من الجموع جموع تزدهي القلعا
فهم سراع إليكم بين ملتقط

العام لأوضاعه السياسية
والاجتماعية والاقتصادية.

قراءة فنية مقارنة للقصيدتين:

سنتناول في هذا المبحث منهج
القصيدتين المختارتين للدراسة
والمقارنة ولغتهما، ومعانيهما،
سعيًا لمقارنتهما، وإبراز التشابه
بينها واختلافهما.

المقطع الأول: الافتتاح والمقدمات:
بدأ الشاعر الجاهلي لقيط بن
يعمر الإيادي عينيته الشهيرة في
نصح قومه وتحذيرهم جيوش
كسرى المتأهبة لحربهم بهذه
المقدمة الغزلية:

يا دارَ عمرةٍ من محلَّتْها الجرعا
هاجت لي الهَمُّ والأحزانُ والوجعا
تامت فؤادي بذات الجزع خربة
مرّت تريدُ بذات العذبة البيعا
بمقلتي خاذل أدماء طاع لها
نبت الرِّياض تزجّي وسطه ذرعا
وواضح أشنب الأنياب ذي أثر
كالأقحوان إذا ما نوره لمعا
جرّت لما بيننا حبل الشَّموسِ فلا
يأسا مُبينا أرى منها ولا طمعا⁸

لقد افتتح لقيط قصيدته هذه
بمقدمة غزلية عتيقة، تعكس
التزامه بسنن الشعر الجاهلي،
فبدأ بمخاطبة ديار محبوبته
(عمرة) ومناداتها تشوقا وتحببا،
ذاكرا أماكن قومها، ورحلتهم
الانتجاعية، متوقفا بعد ذلك عند
النسيب، واصفا عينيها بأنهما
(مقلتي خاذل) وثغرها بأنه
(كالأقحوان) في بياضه، خاتما
هذا المقطع بذكر حالة القطيعة
والإعراض التي طبعت علاقته
بمحبوبته فلا يأس منها ولا طمع

8 - ديوان لقيط: ص5.

9 - ديوان ابن احميد: ص168.

10 - ديوان لقيط: ص6.

هيهات لا مال من زرع ولا إبل
يرجى لغابركم إن أنفكم جُدعا

لا تثمروا المال للأعداء إنهم
إن يظفروا يحدوكم والتلاد معاً¹⁵
لقد شكا لقيط في هذا المقطع
بحسرة وألم من تفرق قومه في
مقابل اتحاد عدوهم، وعيشتهم
عيشة الأمن والرخاء بينما عدوهم
يعد العدة لاستئصالهم والقضاء
عليهم.

ابن احميد

إن النزاع به يأتيكم فشل
يديه من كان للذكر الحكيم قرا¹⁶
فحيثما تك بين الناس نائرة
فأعملوا الجد في إخماد ما نأرا¹⁷
وامشوا لإصلاح ذات البين واقتعدوا
الإبل والخيل والبغال والحمرا¹⁸
لقد حذر ابن احميد في هذا
المقطع من النزاع الذي يؤدي
إلى تفرق قومه، محيلاً على
أن من قرأ القرآن أدرك خطورة
النزاع، داعياً إلى إخماد الفتنة
فور حدوثها، وبذل النفيس في
إصلاح ذات البين.

المقطع الرابع: الدعوة لتولية قائد مُنقذ:

لقيط:

فقلدوا أمركم لله دركم
رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفا إن رخاء العيش ساعده
ولا إذا عض مكروه به خشعا
مُسهد النوم تعنيه ثغورك
يروم منها إلى الأعداء مُطلعا
ما انفك يحلب درّ الدهر أشطره
يكون مُتبعاً طوراً ومُتبَعاً
وليس يشغله مال يثمره



نصر دينه ونبيه ﷺ خاتما هذا
المقطع بوجوب تقديم نصوص
الشرع حسب ترتيبها المعروف:
(القرآن ثم الحديث ثم الإجماع).

المقطع الثالث: الشكوى من تفرقة القوم وضعف عدتهم لعدوهم:

لقيط

وأنتم تحرثون الأرض عن عرض
في كل معتمل تبغون مزرعاً
وتلحقون حيال الشول آونة
وتنتجون بذات القلعة الرُّبعا
وتلبسون ثياب الأمن ضاحية
لا تفزعون وهذا الليث قد جمعا
لا تلهكم إبل ليست لكم إبل
إن العدو بعظم منكم فزعاً

طيبوا نفوساً بأن الله ينصركم
إن تنصروه فيا فوز الذي نصرا¹¹
دعاكم لجفان الذين مترعة
من غاب منكم ومن أزمانه حضرا¹²
قومي هلم إلى الجفان مفعمة
مما يليق ويكفي البدو والحضرا
دعاكم الجفلى وتلك ديدنه
لا كالبخيل إذا يدعو دعا النقرى¹³
فقدموا لأمر تعتنون بها
ذكرا حكيما مع الإجماع والخبر¹⁴
فقد تخلّص ابن احميد من مقدمته
السابقة التي جمعت بين الحكمة
والوعظ، إلى دعوة المرشدين في
مجتمعه بأخذ أيدي المؤمنين
لنهج المصطفى ﷺ وتلبية
نصرته التي هي طريق النصر
من الله الذي لا ينصر غير من

11 - في البيت إشارة واقفاس من الآية الكريمة: (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) سورة محمد، الآية 7.

12 - الجفان: بكسر الجيم، جمع جفنة: مائدة.

13 - الجفلى: الدعوة العامة، الدين: السجدة العامة، النقرى: الدعوة الخاصة.

14 - ديوان ابن احميد: ص 169.

15 - ديوان لقيط: ص 7.

16 - في البيت إشارة للآية الكريمة: (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) سورة الأهل، الآية 4.

17 - النائرة: الفتنة أو العداوة والشحناء.

18 - في البيت إشارة للآية الكريمة: (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون) سورة النحل، الآية 8.

1. أشعار الشعراء الستة الجاهليين (نسخة إلكترونية).
2. الأصبهاني (أبو الفرج)، الأغاني: تح: سمير جابر، (ط2/ دار الفكر - بيروت).
3. البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي): معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تح: مصطفى السقا، (ط3)، عالم الكتب، -1403 بيروت.
4. ابن حامد (المختار)، حياة موريتانيا، ج16، مجموعات شمشوية، منشورات الزمن، الرباط.
5. ابن حميد: (أبو بكر): النصح الديني والسجال الفقهي في شعر العلامة محمد بن حميد (بحث منشور في مجلة منارة الفتوى المحكمة، الصادرة عن مجلس الفتوى والمظالم، نواكشوط، العدد 11/ شعبان 1443هـ/2022م).
6. ابن حميد: (محمد)، مؤلفات العلامة محمد بن حميد الديماني ورسائله، اعتنى به وحققه: د. أبوبكر حميد، ط1، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء- المغرب، 1438هـ/ 2017م.
7. الرافعي (مصطفى صادق، المتوفى: 1356هـ)، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت.
8. الزركلي (خير الدين)، الأعلام قاموس تراجم.
9. ابن الشجري (ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة، المعروف بابن الشجري، مختارات شعراء العرب، ضبطها وشرحها: محمود حسن زنتاتي، ط1، مطبعة الاعتماد، مصر، 1344هـ- 1925م.
10. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، طبعة الحلبي.
11. ابن يعمر (لقيط الإيادي): الديوان الشعري (نسخة إلكترونية).

أستغفر الله مما قد جنيت وما أجنيت فما أحد سواه قد غفرا²⁵ كما ختم ابن حميد قصيدته أيضا بتأكيد نصحه قومه، مثنيا بالاعتراف بالنقص، والختم بالاستغفار من كل ذنوبه.

ملاحظات ختامية

كشف هذا البحث عن جانب مهم من تداخل الأساليب الشعرية الشنقيطية مع الأساليب الشعرية الجاهلية؛ وذلك ما تلخصه في النقاط الآتية:

— عبر الشاعر الشنقيطي محمد بن حميد من خلال قصيدته التي درسناها عن تعلقه بسلفه الجاهلي، وحرصه الدائب على اقتفاء أثره، وترسم خطواته في مهيع الإبداع وأساليب القول.

— يلمس القارئ للقصيدة المدروسة هنا مستوى لا بأس به من الحرص على تجويد الشعر، وبذل الجهد في سبك أساليبه.

— يوجد في القصيدتين المدروستين تداخل أسلوبين واضح بينهما، جاء عبر تناس غرضي بينهما، عكسه نهج الشعارين ولغتهما الشعرية.

— على الرغم من الفروق الكبيرة بين الشاعرين، وما يسديانه من نصح لقومهما، وسعي لأداء الواجب تجاههما، إلا أن قارئ القصيدتين يلاحظ مستوى من التداعي بينهما يجعله يجزم بحرص المتأخر منهما على تتبع سنن المتقدم، والاستفادة من لغته وسرده.

عنكم ، ولا ولد يبغى له الرفعا¹⁹ لقد وضع لقيط في هذا المقطع الشروط الأساسية للقائد المثالي المنقذ لقومه، داعيا لهم إلى اختياره وتوليته أمرهم، حتى ينهض بها غير عاجز ولا وان. ابن حميد:

وقلدوا أمركم سميدعا ندسا يفري إذا جل من الخطوب عرا²⁰ بحلية العقل مزدان ومتصف ونافع العلم كان فيه متفرا أرى شيوخا ذوي حلم وتجربة في الدهر ما سئلوا رأيا ولا نظرا يدبر الأمر غمر بينهم شكس²¹

ما للقليل من التدبير قط درى²² لقد طالب ابن حميد كلقيط في هذا المقطع بتولية القائد المثالي المنقذ لقومه، عارضا الشروط الأساسية له، ناعيا على قومه تجاهل من يحسن القيادة فيهم وتولية غيره ممن هو غمر لا خبرة له ولا عقل.

الخاتمة: إغذار وإنذار:

لقيط: هذا كتابي إليكم والنذير لكم لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا لقد بذلت لكم نصحي بلا دخل فاستيقظوا إن خير العلم ما نفعنا²³ وهنا يختم لقيط قصيدته بتأكيد أنه بذل نصحا لا مواربة فيه لقومه، داعيا لهم إلى الاستيقاظ وإعداد العدة قبل فوات الأوان. ابن حميد

هبنی نصحت لكم وما ألوت لكم نصحا ولكنني المعني بما ذكرنا تكامل العيب في نفسي فما إرم مثل افتقاري لذا قد كان مفتقرا²⁴

19 - ديوان لقيط: ص 8.
20 - السيد: الكرم السيد، الموطأ الآكاف، وقيل: الشجاع. ندس: فطن، كبس. يفري: يشق بحيرة ودهشة. الخطوب: الأمور العظيمة.
21 - غمر: رجل لا تجربة له بحرب ولا أمر، ولم تحكه التجارب. شكس: سقى الخلق.
22 - ديوان ابن حميد: ص 170.
23 - ديوان لقيط: ص 9.
24 - الإرم: الشخص.
25 - ديوان ابن حميد الدياني: ص 172.